مذكرات طبيب شرعى

دكتور
عماد الديب

2002

مكتبة مدبولى

مذكرات طبيب شرعى

الناشر

مكتبة مدبولى

العنوان: ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة

تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ـ **فاكس:** ٥٨٧٢٨٥٤

الكتاب: مذكرات طبيب شرعى

الكاتب: د. عماد الديب

رقم الإيداع: ٤٩٥٨ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى: 2 - 330 - 208 - 977

الطبعة الأولى: ٢٠٠٢ م

لوحة الغلاف: محمد لطفى

عربية للطباعة والنشر

العنوان: ٧ & ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون: ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣ ـ فاكس ٣٢٩١٤٩٧٠

إنها ليست يوميات

وإنما هى مذكرات

مذكرات عن الإنسان حينما
يضل وينتكس ..

ومذكرات عن المجتمع حينما
يسهو ويقسو ..

عماد الديب

مقـــدمة

. . . الإنسان يتحرك حتى ولو ظل ساكنًا !

الجوهر يتحرك ، والضمير يعترك ، والإرادة تصارع ، حتى ولو ثبتت قدما الإنسان .

ولأنه يتحرك فهو يخطأ ؛

يخطأ بيد أن الجوهر يرفض ، وهذه حالة .

ويخطأ تحت مظلة جوهر يستسلم ، وهذه حالة أخرى .

وفرق كبير بين الحالتين .

ولا شك أن الشر والإجرام معروف منذ قديم ولا يزال ، ولا شك كذلك أننا ننظر إلى المجرمين بعين الاشمئزاز والاستغراب .

في هـذا الكتـاب نطـل من خـلال نافـذة الطبـيب الشـرعي على عـالم الإجـرام ، ولا دهشة في هذا .

إنما الدهشة تأتي أولاً حينما نغوص معًا في أعماق المجرم نسبر أغواره ونرصد فيه لحظة اليقظة والتوبة لنكتشف أن خيراً ما زال ينبض مع نبض قلبه .

وإنما الدهشة تأتي ثانيًا حينما نغوص معًا في أعماقنا نحن البشر نرصد فينا لحظات الغفلة والسقوط لنكتشف أن شراً ما يزال يجري مع دمائنا وفي عروقنا حتى مع الأبرار منا « **إلا من عصم ربي** » .

وربما نستطيع أن نخلص مع نهاية هذا الكتاب إلى أن الإنسان لا يخلو أن يكون حالة من بين ثلاث (بعد استبعاد من عصم ربى من الخطأ والغفلة وهم الأنبياء) ؛

نسبة من الأخيار ، إلا أن لحظة السقوط واردة واحتمالية الوقوع ، حتى فى الأبرار منا .

ونسبة من الأشرار ، إلا أن خيراً ما يزال يخفق مع نبضات قلوبها .

وندرة من الأشرار ، لا خير فى قلوبها ولا أمل فى إصلاحها .

والمجتمع يخطأ أولاً حينما ينزل نفس العقاب على نفس الجريمة دون مراعاة لتصنيفات مرتكبيها .

ويخطأ ثانيًا حينما يقسو فى عقابه ، على الإنسان فى لحظات سقوطه ، مع أنها لحظات - كما قلنا - واردة واحتمالية الوقوع حتى مع الأبرار منا .

المؤلف

الطبيب الشرعي

. . . الطبيب الشرعى . . . هو طبيب تخرج فى كلية الطب لكنه غير مصرح له بمزاولة مهنة الطب !

لأنه ببساطة طبيب قاض يعمل فى وزارة العدل

وإذا كان تعداد سكان مصر أكثر من ستين مليون نسمة فإن عدد الأطباء الشرعيين فى مصر منذ سنوات قليلة لم يكن يتجاوز ستين طبيبًا شرعيًا أى بمعدل طبيب شرعى لكل مليون نسمة .

والطبيب الشرعى يعمل بمصلحة الطب الشرعى التابعة لوزارة العدل . ويبدأ حياته العملية كمعاون طبيب شرعى ثم مساعد ثم نائب ثم طبيب شرعى . . . ثم يتدرج فى السلم الوظيفى .

ومهام الطبيب الشرعى كثيرة وعديدة وفى نفس الوقت شاقة جدًا .

والاعتقاد الشائع أن الطبيب الشرعى يقتصر عمله على تشريح الأموات وحسب اعتقاد خاطئ تمامًا .

فهو أولاً حينما يتعامل مع الأموات فإنما يتعامل مع تلك الحالات المتوفاة جنائيًا أو المشتبه فى وفاتها جنائيًا .

وهو ثانيًا يتعامل مع حالات أخرى كثيرة ؛

فهو يتعامل مع المصابين إصابات جنائية لبيان ما بهم من إصابات وسببها وتاريخ وكيفية حدوثها والأداة المستخدمة ، وعما إذا كانت الإصابة مفتعلة

أو بفعل فاعل ، وعما إذا تخلف من الإصابة عاهة مستديمة من عدمه ، وفى الحالة الأولى بيان نسبتها .

وهو يقوم كذلك بفحص أداة الجريمة المتعلقة بقضايا القتلى أو المصابين سواء كانت راضة (مثل الشوم والعصى) أو بيضاء (مثل السكاكين والمطاوى . . .) أو نارية مثل البنادق والطبنجات .

وفى حالات الأسلحة النارية فإنه يناط بالطبيب الشرعى فحصها لبيان نوعها وعيارها ومدى صلاحيتها للاستعمال ، وعما إذا كانت أجزاؤها سليمة من عدمه وعما إذا كانت هى بعينها المستخدمة فى الواقعة من عدمه .

وما نقوم به حيال الأسلحة النارية نقوم به كذلك حيال مقذوفات الطلقات وفوارغها .

وهو كذلك يقوم بتوقيع الكشف الطبى الشرعى على حالات هتك العرض (سواء للإناث أو الذكور) لبيان ما إذا كان هناك اغتصاب من عدمه ، وعما إذا كان هذا قد تم فى تاريخ يتفق وتاريخ الواقعة المدعى به من عدمه .

كما يقوم بالبت فى قضايا الإفراج الصحى ، إذ إن القانون قد كفل للمحكوم عليه أن يتقدم إلى مكتب النائب العام بطلب عرضه على الطبيب الشرعى ليقوم الطبيب الشرعى بتوقيع الكشف الطبى الشرعى عليه ، فإن بيّن التقرير أن المحكوم عليه مصاب بمرض يعرض حياته بذاته أو بسبب التنفيذ للخطر أُفرج عنه وإلا ظل فى محبسه .

كما يقوم الطبيب الشرعى بالبت فى قضايا المسئولية العقلية ، والتى يدعى فيها المتهم أو المحكوم عليه أنه مريض عقليًا وغير مسئول عن جريمته . كما يقوم بالبت فى قضايا الحجر ، والتى يطلب فيها أحد الأشخاص الحجر على قريب له بدعوى أنه مختل عقليًا وغير قادر على حسن إدارة شئونه المالية بنفسه . كما يقوم بالبت فى القضايا المدنية التى ترد من المحاكم لبيان نسبة العاهة المستديمة التى تخلفت لدى مصاب من جراء إصابته ويترتب على هذا تحديد قيمة التعويض الذى تقدره المحكمة جبرًا لإصابته وتعويضًا عما لحق المصاب من الضرر .

كما نقوم كأطباء شرعيين بالبت فى قضايا الأحوال الشخصية من إثبات بنوة أو نسب ، وأصبح بالإمكان أن نحدد على سبيل القطع صحة نسب المولود من عدمه .

كما نقوم بالبت فى قضايا العنة والتى يترتب عليها أحقية الزوجة فى المطالبة بالتطليق من زوجها نظراً لوقوع الضرر من جراء عجز زوجها عن إتيانها .

وهى من القضايا الحساسة . خاصة إذا كان المتقاضون من الإخوة المسيحين ، حيث إن ديانتهم تعتبر الزواج أبديًا ولا مجال للطلاق حتى لو أراده الطرفان ، اللهم إلا فى حالات ضرورية جداً مثل حالات العنة التى يثبتها الطبيب الشرعى أو ينفيها .

والعجز عن المعاشرة الزوجية كما يمكن نسبه إلى الزوج كذلك يمكن نسبه إلى الزوجة . وفى مثل هذه الحالة إذا ثبت من خلال تقرير الطبيب الشرعى عجز الزوجة عن المعاشرة ترتب على ذلك مسائل خطيرة مثل سقوط حقوق الزوجة من متعة ونفقة ، شريطة أن تكون الزوجة قد أخفت عيوبها عنه قبل أن يدخل بها مما يعتبر غشًا وتدليسًا .

والعجز عن المعاشرة شيء والقدرة على الإنجاب شيء آخر تمامًا .

وما يترتب عليه من أحكام طلاق وسقوط حق المتعة والنفقة هو العجز عن المعاشرة ، أما عدم القدرة على الإنجاب فإنه لا يترتب عليه شيء من هذا .

وقد رأيت بعض حالات لزوجة بمهبل وأعضاء أنوثة خارجية ولكنها بلا رحم أو برحم ضامر ، وعليه فهى لا تنجب وإن كانت قادرة على المعاشرة . كما رأيت حالات نادرة لزوجة بلا مهبل وعليه فهى غير صالحة للمعاشرة الزوجية !

كما يقوم الطب الشرعى بالبت فى قضايا المسئولية الطبية وهى من أشق القضايا التى تقع على كاهل الطبيب الشرعى . والمتهم هنا أو المشكو فى حقه هو طبيب . ولا تأتى صعوبة هذه القضايا من كون المشكو فى حقه طبيبًا نتحرج من إدانته ، مطلقًا .

فالمفترض أن الطبيب الشرعى غير أى طبيب ، فهو يتبع وزارة العدل وضميره ومهنته يحتمان عليه الحكم بالميزان ، وعدم المجاملة أو المحاباه .

وإنما تأتى المشقة من حيث كون المشكو فى حقه قد يكون أستاذًا كبيرًا فى الطب والجراحة ، وبالتالى فنحن نحكم على مستويات عالية فى مهنة الطب ، الأمر الذى يستدعى من الطبيب الشرعى أن يتسلح دائمًا بمطالعة أحدث المراجع العلمية حتى يمكنه البت فى مثل هذه القضايا .

كما يقوم الطب الشرعى بالبت فى قضايا التعذيب واستعمال القسوة . والمشكو فى حقه هنا هو ضابط الشرطة أو أحد أفراد الشرطة ، وهى من القضايا الحساسة كذلك ، إلا أنه كما قلنا الضمير والواجب والحكم بالميزان لوازم للطبيب الشرعى لا تفارقه . وفى مثل هذه القضايا نبين هل هناك فعلاً تعذيب أو استعمال قسوة وقع على المدعى . وهل المظاهر الإصابية ناتجة عن تعذيب حقًا أم هى من قبيل الافتعال ، وهل تاريخها يتفق مع تاريخ الواقعة المدعى بها أم بتاريخ سابق أو تاريخ لاحق ؟ كما نبين نوع الأداة المستخدمة فى إحداث هذه الإصابات .

ومن أغرب المهام التى يكلف بها الطبيب الشرعى حضور حالات الإعدام أو ما يسمى بالشنق القانونى .

فالطبيب الشرعى كمندوب عن وزارة العدل ركن من أركان تنفيذ حكم الإعدام ، وهو موقف مهول وله بروتوكلات خاصة وشعائر مميزة .

موقف رهيب . . . رهيب . ربما من خلاله فقط نستطيع أن نسبر أغوار الإنسان .

الإنسان أراه جوهرًا له قدرة معينة تتفاوت فى كمها .

بهذا الجوهر يعترك الإنسان مع الحياة .

شبكة رهيبة من العلاقات يتأثر بها سلوكه وتؤثر فيه ، الأسرة – الجيران – الأصدقاء – المدرسة – المجتمع – وسائل الإعلام – النظام الاجتماعى – الحالة الاقتصادية – . . . عناصر كثيرة شتى تتشابك مع جوهر الإنسان لتصوغ فى النهاية سلوكه .

سلوك الإنسان فى الحياة هو إذن نتاج تفاعل بين أمرين ، أمر يعكس جوهره، يعكس الفطرة ، يعكس الأنا الحقيقية ، ربما لم نختر من بين الأمرين سواه ، ربما اخترناه أزلاً فى عالم الذر ، وربما هو الشيء الوحيد الذى نحاسب عليه يوم الحساب . وأمر آخر تفرزه الظروف المحيطة . ربما ينجح الجوهر بحكم علو قدره أو بحكم مسالمة الظروف لنا أو ربما بهما معًا .

وقد يفشل ، ربما بحكم دنو مستواه ، وربما بحكم ضراوة المعركة وشراستها، وربما بهما معًا .

سلوكنا فى الحياة نتاج تفاعل بين جوهر داخلى قد اخترناه أزلاً ، وظروف وعناصر خارجية لم نختر شيئًا منها . . . الجوهر ربما هو الشيء الذى يضع الله له الميزان فى الآخرة ، والسلوك بما فيه من ظروف قد اختلطت بالجوهر هو الذى تحاسبنا به الدنيا ويحاسبنا به إخواننا البشر . فأى عدل فى ميزان الله . . وأى ظلم فى ميزان البشر !

يقول المسيح عليه السلام « إنما الناس نوعان رجل معافى ورجل مبتلى فارحموا أهل الابتلاء . . وأحمدوا الله على العافية »

الأصل فى الجوهر هو الخير والصلاح ، وهو مسئوليتنا نحن ، وهو الذى ينكشف أمامنا فى الآخرة . ربما يتوه اليوم بيننا وسط الزحام ، وربما اختلط بالفساد وتراكم عليه التراب أو ران عليه الصدأ ، لكن صدى صوته ما يزال يخفق فينا حتى فى المجرمين منا . ربما يعيش المجرم لا يسمع صوت صدى جوهره ، ربما يحاول الجوهر من تحت أنقاض التراب أن يُسمع صاحبه صداه ، قد ينجح الجوهر مرة ، وقد يفشل آلاف المرات تحت مطارق الهدم والتزيف وأكوام التراب . وفى وقت تنفيذ الحكم بالإعدام ، صوت الجوهر مسموع مسموع ، الحدث عنيف ، والأمر جلل ، يتزلزل معه الكيان كله ، التراب يتساقط ، والصدأ ينجلى . . . حينئذ ينكشف الجوهر .

هو موقف مهول وكله عبر وعظات . يارب هذا الشاب منذ وقت ليس ببعيد كان مفتونًا مغروراً بشبابه ، دبر وخطط وقتل وسرق ، اليوم يقف أمامنا صامتًا مستسلمًا ، تتلى عليه وعلى أسماعنا وقائع جريمته . ومن بين ما يتلى علينا ، الرأى الذى انتهى إليه تقرير الطبيب الشرعى كأحد الحيثيات الهامة فى الحكم الصادر ضده .

وتحتبس أنفاسى حين يساق المجرم وقد حكم عليه بالإعدام حكمًا عدلاً قصاصًا ، حيث يغطى وجهه ثم تسحب « الطبلية » من تحت قدميه ليسقط إلى أسفل معلقًا فى حبل من رقبته . سقط ليعلو العدل .

وقُتل كما قَتل

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (صدق الله العظيم) (البقرة - الآية ١٧٩)

موقف رهيب يدعو الإنسان منا إلى التأمل .

إننا الآن نرى فرداً آخراً . . . . صلبًا صامتًا .

نادمًا تائبًا .

يرجو رحمة ربه وينشد غفرانه .

أتفرس فيه أكثر . . . . . . أحاول أن أصل إلى أعماقه .

أعرف عنه أنه قاتل . . . . . . استباح دم أخيه الإنسان .

أعرف أن الرسول الكريم قد سجل فى خطبة الوداع قولته المشهورة « ألا إن دماءكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا »

اعرف أن دم الإنسان - كما نبأنا بهذا الرسول الكريم ﷺ - أشد حرمة عند الله من البيت الحرام .

اعرف أن القتل جريمة بشعة يهتز لها عرش الرحمن وقد أنكرته كل الأديان . ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (صدق الله العظيم) (المائدة - الآية ٣٢)

لكننى أعرف كذلك أن الرسول الكريم نهانا عن النظرة السطحية للأمور ، فقد نهى صلى الله عليه وسلّم أصحابه أن يسبوا رجلاً يقام عليه الحد قائلاً لهم : لا تعينوا الشيطان عليه . كما بين الدين الحنيف أن التوبة الصادقة تعود بالإنسان إلى جوهره الطيب . فقد قال صلّى الله عليه وسلّم فى المرأة المخزومية وهم يقيمون عليها حد الرجم أنها تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لكفتهم .

وحينما يساق المجرم إلى الإعدام . . . وحينما يسألونه « نفسك فى حاجة » تبقى كلمات إجابته ترن فى أذنى . ينطق لسانه ووجهه ينظر إلى السماء « سامحونى - اطلبوا لى المغفرة » . . . رسالة من الفطرة ، التى خلقها الله ، إلى المجتمع الذى شاء الله له أن يؤثر فينا أيما تأثير . . . أن أحسن إلىّ . . . . أحسِن ترتيبى . . . . أحسِن رعايتى وتنشئتى فأنا أمانة بيَن يديك .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾

(صدق الله العظيم) (الفرقان - الآيات ٦٨ - ٧١)

وكتابة تقرير الطب الشرعى ليست هينة . وأحسب أن كل كلمة فيه يجب أن توزن بميزان الذهب . بل إن كل حرف قد يغير المعنى وتترتب عليه أحكام خطيرة . وأذكر أننى قد كتبت فى أحد قضايا الإفراج الصحى « والمذكور لا ينطبق عليه الإفراج الصحى » وقد نُسخت الجملة بدون حرف لا ، وبالتالى تغير المعنى تمامًا ، واكتشف هذا الخطأ وأنا أراجع القضية قبل

أن أوقع عليها ، ولولا الحذر الشديد بعد ستر الله لخرج من لا يستحق الإفراج من السجن .

كما يطلب الطبيب الشرعى لمنا قشة تقريره أمام المحكمة . إذ إنه - وكما يقوم الدفاع عن المتهم باصطياد واختراق أية ثغرة فى إجراءات الضبط والتحقيق - كذلك يقوم بمحاولة التفتيش عن أى ثغرة فى تقرير الطبيب الشرعى . بل إن هناك ما يسمى باستشارى الطب الشرعى وهو طبيب شرعى كبير أحيل إلى المعاش ، وصار من حقه أن يفتح مكتب استشارى طب شرعى (تمامًا كما يحق للقاضى بعد بلوغه سن المعاش أن يفتح مكتب محاماه) وتكون مهمته الانضمام إلى فريق الدفاع عن المتهم عن طريق مطالعة تقرير الطبيب الشرعى والبحث عن أى ثغرة فيه ليجد الطبيب الشرعى نفسه فى المحكمة أمام خصم عنيد يناقشه فى أدق التفاصيل الفنية ، ومن هنا فكل كلمة فى تقرير الطبيب الشرعى وكل كلمة يدلى بها في المحكمة لها خطورتها وأهميتها ، ويجب أن تصاغ بالأسلوب الجامع المانع كما يقول المناطقة .

وعلى سبيل المثال حينما أستخدم كلمة لم نتبين فإنها تأتى بمعنى آخر غير ما تأتى به كلمة لم نميز . وكلمة ، « استبان لنا » ، تحمل معنى ربما يزيد عن كلمة « تبين لنا » .

وأذكر أننى طلبت مرة للمناقشة فى قضية لجثة كنت قد قمت بتشريحها ووجدت فيها من بين ما وجدت ما يشير إلى وجود انسكابات دموية بجدار البطن ، أما ظاهر الجثة فكان خاليًا من المظاهر الإصابية . ولما كانت الجثة فى حالة تعفن رمى شديد فقد اخترت أن أصوغ هذا المعنى بالعبارتين الآتيتين « لم نميز بظاهر جدار البطن ثمة آثار إصابية » « وميزنا تلونات لانسكابات دموية بجدار البطن » .

وحتى لا أشغل القارىء بالأمور الفنية الدقيقة أكثر من هذا فقد بدت العبارتان للدفاع متناقضين . إذ إن وجود انسكابات دموية معناها إصابة ،

وعـدم وجـود مظاهر إصـابيـة فى نفس المكان مـعناها عـدم وجـود إصـابة . فسألنى الدفاع ، قلت - « عدم وجود إصابات بجدار البطن » - أجبتُ ، لم أقل هذا .

قال بل قلت . ومسك بالتقرير وقرأ منه العبارة « لم نميز . . . إلخ .

قلتُ ؛ هذه العبارة تعنى أن الجثة بحالة تعفن رمِّى شديد ، ولما كان التعفن بهذه الصورة قد يخفى بعض المظاهر الإصابية الظاهرية ، ولما كان جدار البطن رخو بحيث قد توجه ضربة أو لكمة بالبطن ولا تترك أثر إصابة ظاهرى ، لذا استخدمنا التعبير « لم نميز بظاهر البطن . . . » ليفيد أننى لم أرَ مظاهر إصابية بظاهر البطن بالرغم من احتمال اكتشاف وجودها عند التشريح ، وهى موجودة فعلاً كما وضّحت الجملة الثانية « ميزنا انسكابات دموية بجدار البطن » .

كما أذكر كذلك جثة رجل كنت قد أعددت تقرير الطب الشرعى فيه ، وبينت وجود إصابات رضية احتكاكية بسيطة لا تحدث وفاة بمفردها ، كما بينت من الصفة التشريحية وجود حالة مرضية بالقلب .

وقد انتهيت فى الرأى إلى أن سبب الوفاة صدمة سمبتاوية .

وقد ارتأيت بعد مطالعة مذكرة النيابة وظروف الواقعة أن المشاجرة التى حدثت بين المجنى عليه والمتهم عملت كمؤثر خارجى نفسوى ، كما أن الإصابات البسيطة الموصوفة بتقرير الطب الشرعى عملت كمؤثر خارجى بدنى . كلاهما المؤثر الجسمانى والمؤثر النفسى قد أضافا عبئًا على القلب المعتل أصلاً مما ضاعف العبء الملقى عليه ، فكانت الوفاة .

وقد طُلبت للمناقشة فى المحكمة فى إحدى هذه القضايا ، وبينت من خلالها ما إذا كانت الوفاة جنائية أم مرضية .

ومن بين ما سئلت فيه « إذا لم تكن المشاجرة قد وقعت ترى أكان يموت هذا الرجل فى هذا الوقت » ؟

أجبت « إن السؤال بهذا الأسلوب وهذه الصياغة يدخلنا فى متاهات قدرية أعفى نفسى من الانزلاق إليها » وهكذا رميت بالكرة فى كلمات بسيطة حذرة إلى ملعب الدفاع .

والواقع أن الدفاع كان بسؤاله هذا كمن يريد أن يبرىء متهمًا قتل إنسانًا بطعنة طعنات نافذة فى قلبه ، بدعوى أن لكل أجل كتاب ، وأنه كان سيموت حتمًا فى هذه اللحظة حتى وإن لم يقتله موكّله !

طبعًا ، هذه سفسطة تدخلنا فى متاهات قدرية لا يصح أن ينزلق إليها الطبيب الشرعى .

ومن مهام الطبيب الشرعى كذلك القيام باستخراج الجثث التى ظهر بعد دفنها ما يشير إلى وجود شبهة جنائية .

والواقع أن مأموريات الاستخراج صعبة وشاقة وهو موقف مهيب وله إجراءات خاصة يجب أن يوليها الطبيب الشرعى كل دقة وعناية . إذ إن مثل هذه الجثث تكون قد تغيرت معالمها بفعل التعفن الرمِّى ، وتكون أول ثغرة يخترق الدفاع من خلالها القضية هى التشكيك فى الجثة ، بمعن أن الجثة التى استخرجت وشرحت بمعرفة الطبيب الشرعى ليست هى الجثة محل القضية ! !

وهو اعتراض منطقى ويقود فى النهاية إلى أن الجثة التى قد يثبت من خلال تقرير الطبيب الشرعى وفاتها جنائيًا ، ليست هى عين الجثة التى ما يزال الدفاع مصرًا على أنها توفت وفاة طبيعية .

فالجثة قد تغيرت معالمها والمدفن الواحد يحوى أكثر من مقبرة ، والمقبرة أكثر من جثمان .

من هنا فتقرير الطبيب الشرعى فى مثل هذه القضايا يبدأ ببند الإجراءات وفيه يوضح أنه انتقل مع ضابط المباحث ووكيل النيابة ، وأنه ناقش أقارب

الجثة كما ناقش الحانوتى الذى قام بتغسيل الجثمان وتكفينه كما ناقش اللحاد الذى وارى الجثمان الثرى ، ويأخذ من كل هؤلاء أقوالهم ، وبالتالى يتعرف منهم تفصيليًا على معالم الجثة والكفن والمقبرة ، ثم يتجه إلى الجثمان ليستخرجه وكل هذه الإجراءات تعضد تقرير الطب الشرعى .

فإقرار اللحاد مثلاً بأنه وارى الجثمان التراب حال كون القدمين إلى الناحية الشرقية والرأس إلى الناحية الغربية ، وإقرار الأقارب بأن الجثمان يقع عن يمينه مثلاً جثمان رجل مُسن دفن منذ بضع سنوات هذه الإقرارات وغيرها يجب أن يتبينها الطبيب الشرعى ، ويجب أن ينزل إلى المقبرة بنفسه ليرى موضع الجثمان وموقعه ، وذلك حتى يتأكد قطعيًا أن الجثمان الذى سيقوم بفحصه وتشريحه هو موضوع القضية ، وإلا كانت ثغرة كبيرة للدفاع يخترق من خلالها القضية .

وأذكر أننى قد استدعيت يومًا لاستخراج جثة رجل ، وكانت زوجته الخائنة وقد جمع العشق بينها وبين رجل آخر قد اتفقا على قتل الزوج ثم قاما بدفنه تحت أحد أسوار المنزل ، وبعد عدة شهور باعا المنزل وعاشا فى قرية أخرى . ويشاء العليم القدير أن تدب خلافات بين العاشقين وتدلى المرأة باعترافاتها ، وأن عشيقها قتل زوجها منذ أعوام باستخدام فرد خرطوش .

وفى ساعة مبكرة انتقلت بصحبة قوة من الأمن ورجال النيابة إلى المنزل المدعى بدفن الجثمان تحته ، وكان عبارة عن بيت ريفى كبير أشبه بفناء واسع وبضع حجرات وحظيرة مواشى . اصطحبنا المرأة إلى المكان وقامت بتمثيل الجريمة ، وحددت الموضع الذى دفن فيه الجثمان ، وقمنا بالحفر عند المكان المحدد فلم نعثر على شىء ، ثم أعدنا مناقشة المرأة وتوسيع دائرة البحث . ويبدو أن قدَم الواقعة جعل المرأة لا تذكر المكان جيداً ، وخطر فى بالنا أن تكون تغيرَات جغرافية طرأت على المنزل من هدم وبناء واستعنا بالمشترى الجديد للبيت ، كما أستعنا ببلدوزر لهدم أحد الأسوار على أن يكون الحفر

بحذر شديد حتى لا يحدث كسوراً بالعظام فى حالة اصطدام أحد المعاول بها ، ثم أمرت عمال الحفر بالتوقف فوراً ، إذ قد بدا لى ما يشير إلى وجود قطعة عظم صغيرة وأكملنا البحث بأيدينا وتنفسنا الصعداء . . وجلسنا لبعض دقائق بجانب ترعة نستنشق الهواء بعمق ونتناول أكواب الشاى وأخذت أتسامر أنا ووكيل النيابة وأعود بذكراتى إلى الوراء حيث فترة تعينى بالطب الشرعى . وقد كنت وقتها « تحت التدريب » وكانت أول مأمورية خرجت فيها تحت إشراف طبيب شرعى زميل هى قضية استخراج جثة . قام زميلى الذى اتدرب تحت إشرافه بفحص وتشريح الجثة ، بعد أن قام بعمل إجراءات الاستخراج وتبين له أن الوفاة جنائية . وترجع إلى اسفكسيا الخنق .

وأنا مازلت أعترف بالجميل لهذا الزميل الذى حبب إلى المهنة ، ورأيت فيه الطبيب الشرعى الفنان الذى يأتى بالتائهة كما يقولون ، تذكرت هذه القضية وقد كنا وقتها فى شهر يوليو ، وكان قد مضى على دفن الجثة حوالى أسبوع ، وبدت فى حالة تعفن رمًى شديد والرائحة بشعة جدًا يصعب على غير الطبيب الشرعى الاقتراب منها ، والديدان تتراكب على الجثة وتنهش فيها ، ومع الحر الشديد وتعامد أشعة الشمس كنت ترى منظراً عجبًا ، بل كنت تسمع ما تراه ، فالديدان من شدة الحر كأنها سمك أو جمبرى يقلى فى الزيت المغلى تسمع له فقيعًا .

سبحان الله . . . . وهذه هى نهاية الإنسان .

وقد كان زميلى فى غاية الذكاء فطلب توقيع الكشف الطبى الشرعى على المشتبه فيهم ، وتبين له أن أحد المشتبه فيهم وهى ضرة القتيلة « الزوجة الثانية » ، بها سحجات ظفرية يتفق تاريخ حدوثها وتاريخ حدوث وفاة القتيلة مما يشير إلى أنها هى القاتلة ، وما هذه السحجات الظفرية إلا علامات مقاومة أبدتها القتيلة وهى تتشبث بالحياة ، أو وهى تترك فى جسم القاتلة مستندات الاتهام .

فسبحان من لا يغفل ولا ينام

وأحيانًا كثيرة يكون المستند أو الدليل المادى فى القضية الذى قد يقطع بسبب الوفاة الجنائية ، فى التربة نفسها المسجى فيها الجثمان . ومن هنا فعلى الطبيب الشرعى ألاّ يعول كثيراً على مساعديه ، وإنما يقوم بنفسه بالدخول إلى المقبرة والتفتيش فى ترابها فقد يكون سبب الوفاة إصابة نارية ، والمقذوفات مستقرة بالجثة ، وقد تكون الأنسجة والأحشاء متحللة والأكفان متهلهلة ، حينئذ يسقط المقذوف ويختلط بالتربة تحت الرفات ، والعثور على هذا المقذوف مهم للغاية كدليل مادى قد يقطع بسبب الوفاة الجنائى .

كما قد يكون فحص التربة نفسها مهم للغاية فى حالات التسمم . فالمعروف أن بعض السموم تترسب فى الشعر والأظافر والعظام كما قد تتسرب إلى التربة الموارى فيها الجثة ، وتحليل عينة من التربة قد يفيد كثيراً فى مثل هذه القضايا .

وفى أثناء انتقالنا إلى المأموريات تحدث طرائف وعجائب أذكر منها ؛ وقد تلقيت يومًا - وكنت أعمل فى أسيوط - إشارة من نيابة مركز ديروط بأقصى شمال المحافظة وبعد دقائق تلقيت إشارة أخرى إلى نيابة الداخلة .

انتقلت على الفور إلى مركز ديروط وأنهيت المأمورية ثم توجهنا مباشرة إلى طريق الواحات الداخلة والتى تبعد عن مركز ديروط حوالى ٦٠٠ كم يعنى أكثر من ألف كيلو متر ذهابًا وإيابًا . وكنا فى منتصف شهر يوليو والجو شديد الحرارة ، والطريق عبارة عن صحراء جرداء ، وكلما تعمقنا إلى الداخل كلما ضاق الطريق بين الجبال حتى لتكاد تحسبها تحيطك من كل جانب بل تغطيك من أعلى فلا ترى إلا جبالاً .

وأحاول أن أقيم ألفة مع الصحراء أو أنشىء حواراً ساكنًا معها ، ثم يعترينى ملل شديد من تلك المادة القفر التى لا تسمع ولا تتحدث فأمسك

بالجرنال أحاول أن أتسلى به ، وكلما أحسست بالعطش أمسكت بزجاجة المياه أصبها داخل معدتى صبًا .

وبدا الوقت يمر بطيئًا بطيئًا فلا ترى حولك جديداً ولا تسمع إلا صفيراً. الصحراء تكرر نفسها واللحظات بدت مملة ، والمياه التى معنا بدأت تسخن حتى كادت أن تغلى وتمنيت لو أخذتنى سنة من النوم فلا أستيقظ إلا عند الوصول . . . .

وتحطمت الأمنية قبل أن أنام على صوت فرقعة شديدة ، نزلنا من السيارة فإذا بالإطار الأمامى الأيمن ينفجر ، وكادت السيارة أن تنقلب لولا ستر الله .

وقفنا فى الطريق ، وكان الإطار الاحتياطى قد استعملناه من قبل ، نحاول أن نجد أى سيارة أو أى كائن حى ، لكن أين الحياة فى هذه الصحراء التى لا تسمع فيها إلاّ صوت الهواء الساخن ؟ ثم فوجئنا بسيارة قادمة من بعيد . أوقفت السائق وسألته عن أقرب نقطة مرور ، فقال لى ، على بعد حوالى خمسين كيلو متر ، ركبنا معه ونزلت عند النقطة ، ومن هناك اتصلت عن طريق اللاسلكى بمديرية أمن الخارجة ، وطلبت أن يرسلوا لى سيارة شرطة ، وبعد ساعتين وصلت السيارة فاستقللناها حتى وصلنا إلى مديرية أمن الخارجة ، وهناك تنفسنا الهواء المندى بالظل و استرحنا بعض الوقت ، ثم أكملنا المسير . كان سائق السيارة مساعد شرطة كثير الكلام كسرنا به الوقت . . وكان الليل أوشك على القدوم ، وبدت الصحراء تأخذ طابعًا آخراً ، وكأنها عروس تزفها نسمة الجنوب العليلة .

وصلنا قبل الغروب إلى نيابة الداخلة ، وقابلنا رئيس النيابة واعتذر لنا عما لاقيناه من متاعب ، وأقدم إلينا الأهالى يبادرون بكرم الصعايدة المعهود لعمل الواجب . وسبحان الله ، حتى أهل الجثة وهم فيما هم عليه من أحزان – ابتلعوا أحزانهم أو أخفوها من على وجوههم وقابلونا بترحاب شديد

لضيف قادم من بعيد . نزلنا إلى استراحة المحافظة وتبادلنا الحديث الودى ، وتعرفت على عضو بمجلس الشعب ، وكان فى يده كتاب من تأليف د. طه حسين - وأعربت له عن حبى لطه حسين لكن إعجابى بالعقاد أشد . العقاد صاحب العبقريات ولو لم يكتب غيرها لكفته . أخذنا الحديث مع هذا الرجل الدمث الخلق فتبادلنا كروت التعارف وعرفت منه أنه جارٌ لى فى القاهرة . . .

أدينا المأمورية ثم مضينا حيث رحلة العودة . وبقدر ما كانت المأمورية صعبة وشاقة ومملة فى الذهاب حيث النهار والشمس والصحراء التى بدت كعدو جاثم على الصدور بقدر ما كانت ممتعة للغاية فى الإياب ، حيث الليل والقمر والنجوم والصحراء . . . الصحراء التى ظننتها بالنهار لا تتحدث ، الآن أسمع حديثها بل أسمع شدوها ولحنها .

والواقع أن الناس يقدرون جيداً مهمة الطبيب الشرعى ، ويدركون أنه جزء من العدالة جاء إليهم ليساعدهم فى استرداد حقوقهم والاقتصاص من المجرم . ولم يشذ هذا الفهم إلا مرة واحدة حدثت معى وأنا أعمل فى إحدى محافظات الصعيد .

وكنا قد توجهنا لفحص وتشريح جثة رجل مصاب بأعيرة نارية ، وما أن نزلت من السيارة ، وكان معى ضابط المباحث ، حتى فوجئنا بأهالى القتيل يصوبون بنادقهم فى وجوهنا ويصيحون « أخونا ما يتشرحش واصل » .

تمالكت نفسى وتوجهت لأتحدث معهم ، وكان من بينهم شاب يتحدث بلغة تقترب من لغة المنطق . صحيح أنه منطق مغلوط لكنه منطق والسلام .

قلت له : إنت مش عايز نقوم بعملنا ليه ؟

قال : وإنت عايز تشرح أخوية ليه ؟

قلت : مش أنا اللى عايز ، ده القانون هو اللى عايز .

والقانون عايز ليه ؟

علشان نجيب لكم حقوقكم .

وإيه اللى حتجيبوه ؟ إحنا عارفين القاتل . قلت ؛ أنا مش بس مهمتى المساعدة فى البحث عن القاتل ، ولكن مهمتى تجميع الأدلة الفنية وتقديمها للمحكمة ، وبالتالى القاتل يأخذ أشد عقوبة .

واستمر الحوار إلى أن اقتنع بالتشريح بعد أن أفهمته أن التشريح ليس تمثيلاً بالجثة كما كان يعتقد وأنه إجراء بسيط ، والضرورات تبيح المخطورات .

وهكذا أدينا مهمتنا بعد أن جف الدم فى عروقنا .

وبعد . . . فتلك مهنة الطبيب الشرعى ، وتلكم هى بعض مهامه ، وهى كما رأيت مهام كثيرة وشاقة ، فإن أضفنا إلى هذا قلة عدد الأطباء الشرعيين أدركنا حجم العبء الواقع على الطبيب الشرعى . وأذكر أننى وقت أن كنت أعمل بقنا وأسوان كنت أركب سيارة الطب الشرعى فى مأموريات لمدة عشر ساعات يوميًا ، وأمكث فى مكتبى لمدة مماثلة أنجز فيها القضايا ، ثم أذهب إلى الاستراحة لأقضى ساعات قليلة فى نوم عميق .



تقرير الطبيب الشرعي

. . . المستشفى . . . والطبيب المعالج هم أول من يلجأ إليهم المصاب لإنقاذ حياته .

وكثيراً ما ينقذ الطبيب المصاب مهما كانت إصاباته خطيرة ، ولكن أحيانًا يحدث العكس وتأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .

وأذكر أننى انتدبت يومًا لفحص وتشريح جثة ، وكان بها إصابات مستوية الحواف بالبطن . مما يعنى أن الأداة المستخدمة جسم صلب ذو نصل حاد مثل السكين ، وتبين لى من التشريح الآتى :

إن إصابات البطن ليست نافذة ولا عميقة والأوعية الدموية الكبرى مقابلها سليمة . إذن فالإصابة ليست هى سبب الوفاة .

استكملت التشريح فلاحظت أن المثانة خالية من البول . وأن الكليتين لا يبدو عليهما مظاهر إصابية أو مرضية ظاهرة بالعين المجردة .

وخلو المثانة من البول يرجع إلى عدة أسباب منها ، أن يكون هناك خلل حاد فى عمل الكليتين حتى لو بدتا للعين المجردة سليمتين . وقد رجحت هذا الاحتمال وتدعم عندى هذا الظن ، بعدما تلاحظ لى وجود اصفرار بحدقتى العينين والأحشاء .

وكل هذه المظاهر تدعم عندى التصور الآتى ؛

- إن إصابات البطن غير كافية لإحداث الوفاة .

- إن المصاب بعد إصابته نقل إلى المستشفى وهو فى حالة نزيف وتم نقل دم له ، لكن للأسف الشديد كان دمًا غير متوافق مع فصيلة دمه .

وقد قمت بأخذ الكليتين لفحصهما مجهريًا وتبين من الفحص المجهرى وجود مظاهر باثولوجية تؤكد هذا التصور .

لقد كانت إصاباته بسيطة . . . ولكن قتله جاء على يد من كان يظن فيه إنقاذ حياته . وهى حالات نادرة لا تجعلنا نفقد الثقة فى مستشفياتنا وأطبائنا الذين يقومون ليلاً ونهاراً بإنقاذ حياة آلاف المصابين ، وإن كانت تجعلنا نقف أمام دهاء القدر حيارى مشدوهين .

وهنا يجب أن نوضح أن مهمة تقرير الطبيب الشرعى ليست فقط تحديد سبب الوفاة الجنائية ، فكثيراً ما يكون سبب الوفاة الجنائى معلوم ، وهناك ألف شاهد على وقوع جريمة قتل بسكين مثلاً ، وكثيراً ما يعترف المتهم ويرشد عن أداة الجريمة .

لكن الأخطر فى مهمة الطبيب الشرعى هو تجميع كافة الأدلة الفنية التى لا يمكن إنكارها أو تجاهلها ، وبالتالى يكون حكم المحكمة قاطعًا وعلى بينة . إذ كثيراً ما يدلى شهود بشهادتهم أمام الشرطة أو النيابة ثم يتراجعون عنها فى المحكمة ، أو يأتى المتهم بشهود يشهدون لصالحه .

وأحيانًا يعترف متهم بجريمة أمام النيابة ثم يتراجع عنها أمام المحكمة . وأحيانًا كثيرة يشكك الدفاع فى شهادة الشهود أو يبين وجود تناقض فيها . وعليه فتقرير الطبيب الشرعى بما فيه من أدلة فنية لا تحتمل شكًا أو تراجعًا هى المرجعية الأولى فى حكم المحكمة .

كـذلك من الخطورة فى تقـرير الطبيب الشـرعى أن يوضح التصـوير الفنى للجريمة ، وهذا التصوير يتوقف عليه فى النهاية التوصيف القانونى للجريمة . فالقاتل قد يصدر ضده حكم بالإعدام ، وأحيانًا بالسجن المؤبد وأحيانًا بعقوبة السجن عشر سنوات مثلاً ، وهذه الأحكام المتباينة تبنى وتتوقف إلى حد كبير على التصوير الفنى للجريمة فى تقرير الطب الشرعى .

والواقعة التى ذكرناها آنفًا ، تبين بجلاء خطورة تقرير الطبيب الشرعى الذى حول - من خلال الرأى الفنى - المجرم المعتدى بآلة حادة ، من متهم بجناية قتل عمد ، إلى متهم بتهمة ضرب . وواضح الفرق بين الأمرين ، كما حول الطبيب المعالج إلى متهم بتهمة القتل الخطأ !!

وأذكر فى هذا الصدد واقعة أخرى .

فقد انتدبت يومًا لفحص وتشريح جثة ، ووجدت بها إصابات قطعية تبين لى من التشريح أنها بسيطة وغير نافذة ولا تحدث الوفاة . وقد قمت بأخذ عينات حشوية لتحليلها وتأكد من خلال التحليل أن بها نسبة كحوليات عالية تؤدى إلى الوفاة .

وبهذا فالتصوير الفنى للواقعة ، أن القاتل والمقتول كانا فى ليلة سمر صديقان يحتسيان الخمور . ويبدو أنهما كانا يصفيان مشاكل مادية بينهما ، ويبدو كذلك أن جرعة الكحول كانت تزيد مع تزايد العجز عن تصفية مشاكلهما :

وسبحان الله فكيف تصفى المشاكل والعقول غائبة . وعند لحظة ما غاب فيها العقل بعد أن وصلت جرعة الكحول إلى نسبة قاتلة فى الدماء ، كما وصلا فيها الاثنان إلى عجز تام عن تصفية خلافاتهما ، عندئذ تشاجرا بدل أن يتصالحا واعتدى أحدهما على الثانى بآلة حادة .

وقد بينت فى تقريرى أن الوفاة ترجع إلى التسمم بالكحول ، وليس إلى الإصابات القطعية .

بصمة السلاح

إذا كان لكل إنسان بصمة . . فإن الأسلحة النارية كذلك لها بصمتها . وهو ما يسمى فى حالة البنادق والطبنجات بالششخانات . وهذه الششخانات تترك هى الأخرى بصماتها وانطباعتها على المقاذيف وهو ما يسمى بالميازيب .

كما أن إبرة ضرب النار فى السلاح تترك دائمًا على كبسولة فارغ الطلقة فدغًا فيختلف هذا الفدغ فى كل سلاح عن غيره .

ومن خلال ما نقوم به كأطباء شرعيين من فحص السلاح المشتبه فى استخدامه فى الجريمة ، ومن خلال دراسة الششخانات والميازيب والفدوغ فى السلاح والمقذوف وفارغ الطلقة ، وأحيانًا ما نستعين فى عملنا هذا بالفحص تحت الميكروسكوب الإلكترونى، نستطيع أن نحدد السلاح المستخدم فعلاً فى الجريمة .

وأذكر أننى انتدبت مرة لفحص وتشريح جثة . وكان تصور رجال المباحث عن الجريمة أن المقتول ينتمى إلى عائلة عليها ثأر قديم . وأنهم يعتقدون أن أكثر من فرد من العائلة الأخرى قاموا بإطلاق النيران على القتيل .

وبعد التعرف على الجروح النارية فى الجثة والتميز بين فتحة الدخول وفتحة الخروج ، إذ إنه يتوقف على هذا التمييز تحديد اتجاه الإطلاق ، خلصت إلى أن هناك ثلاثة جروح نارية واثنان لفتحات خروج نارية . ومن هذه النقطة خلصت إلى الآتى :

عدد الطلقات التى أصابت القتيل ثلاثة ، اثنتان منهن دخلتا وخرجتا من الجثة والثالثة دخلت واستقرت بداخلها .

ثم ببذل مزيد من الجهد والتدقيق تبينت أنه بالرغم من وجود ثلاثة فتحات نارية دخولية إلا أنه الأقرب إلى المنطق والأكثر احتمالاً أن تكون عدد الطلقات التى أحدثت كل هذه الثقوب النارية طلقة واحدة فقط . وهو أمر قد يبدو عجيبًا .

إن الجثة راقدة على ظهرها . . . ولكن القتيل لم يكن وقت الجريمة جثة ، بل كان يتمتع بطاقة وحيوية ، يجرى ويقفز ويثب ويحاول أن ينقذ نفسه ، لذلك

فالإنسان فى هذا الموقف لا يأخذ وضعًا معتدلاً قائمًا ، بل ثنى مفاصل الأطراف هو الأقرب إلى التصور فى مثل هذه المواقف .

وصحيح أن التصور المبدئى للجثمان الراقد الآن على ظهره أنه أصيب بثلاث طلقات نارية ، إحداها دخلت بخلفية الساعد الأيسر ثم خرجت بمقدمته ، والثانية دخلت بمقدم العضد لذات الطرف ثم خرجت من خلفيته ، والثالثة دخلت بالصدر حيث استقرت بداخله ، هذا تصوير مبدئى لجثة راقدة على ظهرها .

أما تصورى للجريمة كقاتل يحاول أن يفتك بفريسته فى أسرع وقت ، وقتيل يحاول أن يقفز ويهرب ، أو قتيل أُخذ على غرة فى غير وضع الانتصاب والاستواء ، فالأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتدقيق .

وقبل أن أخلص إلى التصور النهائى ، قمت بفحص ملابس القتيل التى يرتديها وتأكدت من وجود فتحات دخول وخروج مطابقة لتلك الموجودة بالجثة .

وكان تصورى فى النهاية :

أن القتيل وهو شاب فى مقتبل العمر كان يجلس القرفصاء ويبدو أنه كان فى وضع متأملٍ كما يجلس أحدانا يفكر ويضع يده اليسرى على وجهه ويسرح فى عالم بعيد .

فى هذا الوضع أُخذ الفتى على غرة بطلقة واحدة دخلت بخلفية الساعد الأيسر وخرجت من مقدمته ثم دخل نفس المقذوف بعد خروجه إلى مقدم العضد الأيسر ثم خرج من خلفيته ليدخل ثالثًا إلى الصدر حيث استقر .

وأثناء التشريح قمت باستخراج المقذوف المستقر ووجدته من عيار ٦٢ , ٣٩×٧ وتبينت عدم وجود ميازيب عليه .

ثم قمت فى مكتبى بفحص الأسلحة النارية ، ويبدو أنها كانت تخص أكثر من متهم ، فوجدت أنها بنادق آلية من عيار ٦٢ , ٣٩×٧ روسية الصنع مششخنة الماسورة .

وخلصت إلى أنه وإن كان عيار المقذوف المستخرج من الجثة مثل عيار الأسلحة النارية المشتبه استخدامها فى الحادث مما يلقى تصوراً مبدئيًا بإمكانية أن تكون هى المستخدمة فى الجريمة ، إلا أن وجود ششخانات بمواسير هذه الأسلحة يعنى أن أى مقذوف ينطلق منها لابد وأن يترك انطباعات هذه الششخانات عليه وهو ما يسمى بالميازيب .

وحيث إن المقذوف الذى استخرجته من الجثة وبعد فحصنا له تبين عدم وجود مثل هذه الميازيب فالأمر ينفى بصورة قاطعة أدنى احتمال أن تكون أحد هذه الأسلحة هى المستخدمة فى الحادث .

وتحركت المباحث من جديد فى ضوء ما خلصنا إليه من رأى فى تقرير الطب الشرعى ، وتبين فى النهاية ؛ أن القاتل هو فرد واحد فعلاً ، وأنه لا علاقة له بالثأر ولا بالعائلة الأخرى ، بل القاتل من نفس عائلة القتيل ، بل من نفس أسرته ، بل هو والده !

وكان الابن القتيل قد رغب فى الزواج من إحدى الفتيات ، ولكن أباه رفض هذا الزواج ، ونشبت مشاجرة بين الوالد وابنه خرج بعدها الولد من البيت ثائراً مهددًا بالزواج من فتاته غصبًا عن والده .

ويبدو أن الولد كان يحب الجو الشاعرى فذهب إلى الغيط حيث جلس القرفصاء واضعًا يده على صدغه حزينًا متأملاً .

والوالد من خلفه يلعن ابنه ، والدماء تغلى فى عروقه . . . عروقه النبيلة التى يأبى أن تتلوث بعروق من لا نسب له ولا طين ، لتتلوث فى النهاية بدماء ابنه الوحيد .

الوالد خلفه . . . والسلاح فى يده والشيطان يربت على كتفه والغشاوة تعمى عينيه ويضغط على التتك لتنطلق الرصاصة . . . . . ويقتل الوالد ابنه !

. . . هل رأيت ملائكة الرحمة ؟!

أشهد أني قد رأيتهم .

انتدبت وأنا أعمل فى أسيوط لتوقيع الكشف الطبى الشرعى على أحد المصابين لبيان ما به من إصابات وسببها وتاريخ وكيفية حدوثها والأداة المستخدمة . ناظرت المصاب وعرفت حكايته .

شاب فى مقتبل العمر ، تعرف منذ سنوات على فتاة أحلامه ، تزوجا بعد قصة حب عنيفة ، ويبدو أن هذا الزواج كان إطاره العام العنف ، أحبها بعنف وأعطاها كل شيء على بياض ، وأعطته كل شيء دون حساب . . . ثم وقع بينهما خلافات ، تحولت إلى مشاجرات ، حتى الطلاق كان عنيفًا .

الزوجة المطلقة تتحرش بطليقها . . . يتلثم اثنان من أهلها ويقتحمان عليه داره ويمطرانه بوابل من النيران .

ناظرت الرجل فإذا به مظاهر إصابية لما يزيد عن عشر طلقات نارية ، كل واحدة تكفى لقتله . أكثر من طلقة فى العنق وخمس طلقات بالصدر والظهر ومثلهم بالبطن .

يا إلهى أكثر من عشر طلقات ، كل واحدة منها تخترق مكانًا حساسًا فى جسمه حتى يكاد لا يكون بينها وبين شريان كبير وبين القلب مسافة تذكر .

اثنان ملثمان يقتحمان الدار وينهالان على صاحبها بوابل من الرصاص يريدان قتله لكن الله يريد له النجاة .

وإذا فكر كل واحد فينا سيجد أن ملائكة الرحمة يحيطونه من كل جانب بل ويصرفون عنه كثيراً من الأذى .

فكم مرة أحاط بك خطر محدق ، وكم مرة استشطت غضبًا وكدت أن ترتكب جريمة تخسر بها دينك ودنياك ثم استغفرت الله وأنبت إليه ، وكم مرة كدت أن تلقى حتفك تحت عجلات سيارة أو كادت سيارتك أن تصطدم أو تنقلب ثم أنقذتك عناية الله . بل إن رحمة الله تفيض عليك حتى تحتويك . . . أليس صرفه الأذى عنك عناية ورحمة .

أليس شفاؤه لك ، من مرض ألمّ بك أو درئه عنك ، عناية ورحمة ، ثم أليست الزوجة الصالحة والأولاد البررة والقناعة والستر ، وكثير وكثير مما ينعم الله عليك عناية ورحمة .

أحيانًا يريد المتربصون القتل وتقطع كل الأسباب بأن فلانًا مقتول لكن الله يريد له الحياة ويكتب له النجاة .

وأحيانًا وأحيانًا ، ما يصدر الأمر الإلهى أن فلانًا مقتول ولو كانت الضربة بسيطة بسيطة .

وهى أمور فى النهاية تمضى بنا فى كون الله المكنون وفق حكمة إلاهية لا يعلمها إلاّ هو .

أذكر أننى انتدبت لفحص وتشريح جثة فتاة صغيرة تبلغ من العمر حوالى عشر سنوات ، وكان أخوها يمزح معها مزاحًا سخيفًا وكانت مطواة فى يده فرماها بها رمية بسيطة ، ربما كان يريد للمطواة أن تأخذ مسارًا منحنيًا لترتفع إلى أعلى قليلاً ثم تسقط على الأرض قبل أن تمس جسمها .

ولكن ما حدث كان غير هذا ، لقد لمس طرف المطواة جسم الفتاة النحيف فى موضع دقيق فكان فيه هلاكها . إنه شريان كبير بأعلى منتصف مقدم الفخذ يقع تحت الجلد مباشرة .

وسبحان الله . إنك إذا ناظرت الجثمان لم تستطيع أن تميز به آثاراً إصابية ، ومع التدقيق تكتشف هذا الجرح البسيط الحجم الذى لا يتعدى حجم رأس الدبوس والذى شاءت إرادة الله أن تُقتل هذه الطفلة المسكينة به على يد أخيها المازحة .

وأحيانًا ما تحدث الوفاة بسبب لكمة بسيطة وغالبًا ما تكون هذه اللكمة القاتلة فى أماكن معينة من الجسم مثل خلف الأذن وعند فم المعدة وبالخصيتين ويكون سبب الوفاة فى هذه الحالات تهيج العصب الحائر وتأثيره على الجهاز الباراسمبتاوى .

وهى من القضايا الصعبة التى تحتاج إلى دقة فى الأسلوب وسهولة فى صياغة العبارات وتوضيح العلاقة السببية بين اللكمة وحدوث الوفاة ، وكيف حدثت الوفاة بسبب هذه اللكمة التى قد تكون بسيطة .

وتتميز الوفاة فى هذه الحالة الجنائية بأنها سريعة وتحدث فى خلال ثوان . وربما يشير القرآن الكريم فى قصة سيدنا موسى عليه السلام إلى مثل هذه الحالة فيقول تعالى ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ (القصص - الآية ١٥) أى لكمه ، والفاء فى قوله « فقضى » تفيد السرعة وتنفى التراخى فى الزمن .

على أن مما يستوقفنى فى حكاية الشاب الذى أراد له المتربصون القتل وأراد الله له النجاة ، طابع العنف الذى يخيم على القصة من أولها حتى نهايتها ، بل إنه العنف الذى يخترق هذه القصة ليرخى أستاره على حياتنا كلها .

العنف الذى يكتسح الزمان والمكان كله .

العنف الذى يكتبسح الأرض .

العنف الذى يكتسح المجتمعات والأقاليم .

العنف الذى يكتسح الأسرة .

العنف الذى يكتسح الإنسان .

حتى ونحن نحب نحب بعنف .

والرسول الكريم يخبرنا أنه ونحن نحب لا يصح أن نفتح كل الأبواب على الغارب . يقول المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم :

« أبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكونَ بينك وبينه ودًا يومًا ما ، وأحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بينك وبينه بغضًا يومًا ما » (صدق رسول الله ﷺ)

لا تغلق الباب كلية فى وجه من تكره اليوم ، فلا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا . . . لعله يصير صديقًا غدًا . فالأبواب الموصودة تحول بينك وبين خير قد يأتى إليك .

أما حبيبك فمهما كان الحب بينكما ومهما كانت الصداقة اليوم فلا يصح أن تفترض التوافق الأبدى التام . فوجود الخلاف بين المتحابين أمر وارد ، ولا غبار عليه . فما الذى يحيله إلى شجار ثم شجار عنيف ؟ ؛

الحب العنيف يسحب أسرار كل طرف ويعريها للطرف الآخر ، وقد لا تظهر تبعات هذا وخطورته فى أوقات الصفاء . وهى أوقات قد تكون طويلة مديدة . . . ولكن الإنسان من الأغيار ، ودوام الحال من المحال والشيطان ينزغ بيننا ويجرى فى ابن آدم مجرى الدم فى العروق .

لحظة الاختلاف واردة ولا غبار عليها ، إنما الغبار يأتيها من حيث كون الطرفين قد كشفا سابقًا كل أوراقهم للطرف الآخر . حينئذ ؛ ويحكم طبيعة هذه الشخصية التى أحبت حتى الثمالة ، الشخصية التى لا تعرف الإتزان فى العواطف . هذه الشخصية لا تؤتمن على الأسرار فى لحظات الخلاف ، وهكذا تتحول الأسرار المؤتمنة إلى فضائح معلنة يتبارز بها الطرفان فى أوقات الغضب .

أقول لحظة الاختلاف واردة ولا غبار عليها ، وإنما الغبار يأتيها من حيث كون الطرفين قد كشفا نفسيهما أمام الطرف الآخر سابقًا .

ويأتيها الغبار كذلك من حيث كون الطرفين فى أوقات الصفاء قد اعتادا على مستوى عال من الود والإفضاء ، والانخفاض فى هذا المنسوب إلى المستوى الذى كثيراً ما تفرضه علينا الحياة غصبًا عنا يحدث توتراً شديداً لدى هذه النفوس الغير متزنة مما يميز خلافاتهم بالطابع الانفجارى العنيف .



. . . هل اختفى الحب ؟

هل ضاع القانون ؟

هل نعيش فى عالم بلا حدود . . . . بلا أسرة . . . . بلا مجتمع ؟

الله وحده لا يغيب .

فحش بلا فاحشة .

وقتل بلا قاتل .

وأين الميزان .

عدل الله لا يغيب .

الناس يصرخون . . . قتيل .

وتتحرك المباحث . . . تبحث . . . تسأل عنه الشهود والأقارب .

أين أمه ؟

أين أبوه ؟

إخوته . . . أصدقاؤه .

زوجته . . . أبناؤه ؟

لا شىء يفيد القضية .

لأنه قتيل بلا أم ولا أب ولا إخوة ولا شهود ! اللهم إلا الله تعالى .

إنه لقيط فى مقلب الزبالة .

وانتقلت من مكتبى بالقاهرة إلى موضع الجثة .

وكانت الأسئلة الآتية هى الأمور الفنية التى أبحث عنها ؛

هل ولد حيًا أم ولد ميتًا أصلاً ؟

وفى الحالة الأولى ، هل قُتل أم توفى نتيجة حالة مرضية أو عيب خلقى ؟

وإذا كان قد قتل فكيف ومتى قتل ؟

وهل هو مكتمل الأشهر الرحمية أم دونها ؟

وأمكن لنا من فحص وتشريح الجثة أن نحدد عمر الجنين الرحمية ، وأن نتبين أنه ولد حيًا ، وأن نحدد كذلك الفترة التى عاشها بعد الولادة حيًا ، ثم تاريخ الوفاة .

كما استبعدنا أن يكون هناك جريمة قتل بالخنق أو كتم النفس وهى الوسائل الشائعة فى قتل حديثى الولادة .

كما استبعدنا وجود التهابات رئوية أو غيرها من الحالات المرضية الشائعة فى وفاة حديثى الولادة .

وكادت القضية أن تغلق عند هذه النقاط .

لكن . وأين عدل الله ؟

ما قصتك أيها الجنين ؟

هل هو جنين لحمل شرعى لأبوين فقيرين وجد أبواه أن أسهل وأرخص طريقة لدفنه هو مقلب الزبالة ؟

أم هو حمل غير شرعى وجريمة قتل ؟

حدثته ؛ انطق بالله عليك ! فقد تعودت أن يكون بينى وبين الجثث حديث هامس وحوار قلق .

وبينما لسانى يتساءل ويدى تمسح على جسم الجسمان الصغير إذ بإصبعى تلمس شيئًا غريبًا على جمجمته .

يا إلهى . . . نقطة سوداء على نافوخه . . . دققت وقمت بتشريح الجمجمة ، فإذا بدبوس قد وضع كخازوق فى نافوخه !

وبعد فحص وتشريح جثة اللقيط قمت بفحص الأقمشة واللفافات الملفوف بها .

لفافات مهلهلة . . . جزء من جلباب . . . أمكن من خلاله أن أقرأ عليه كلمات مطبوعة تشير إلى اسم المصنع الذى تصنع فيه مثل هذه المنسوجات .

ومن خلال تقريرنا مع تحريات المباحث تم التوصل إلى الأم القاتلة :

بنت تبلغ حوالى ثمانية عشر عامًا تعمل فى محل منسوجات . غرر بها صاحب المحل ، وعاشرها معاشرة الأزواج . حملت ووضعت مولودها . تفتق ذهنها مع شريكها الغاوى أن يتخلصا من الجنين .

وغالبًا ما تكون أداة القتل مستوحاة من طبيعة عمل القاتل ؛ فالفلاح كثيراً ما يقتل بالفأس .

والجزار بالسكين .

وكانت هذه هى أول وآخر مرة أرى فيها عملية قتل بدبوس . ولا عجب فالقاتلان يعملان فى محل ملابس وكثيراً ما يلفان الملابس بالدبابيس .

* * *

ويتشابه الجنين الآدمى فى الشكل كثيراً مع غيره من أجنة الثدييات الأخرى .

وأذكر أن امرأة قد ادعت أن جارتها اعتدت عليها بالضرب ، وأن هذا الاعتداء أسفر عن إجهاضها .

وأرسلت النيابة إلىّ مخلفات الإجهاض كما أرسلت إلىّ المرأة المدعية بهذه الواقعة .

وكانت النتيجة المذهلة بعد فحص الجنين ومخلفات الإجهاض أنه ليس آدميًا وأنها لم تكن حاملاً أصلاً . إنه جنين حيوان استغلت المرأة الشبه الكبير بينه وبين جنين الإنسان لتلفق تهمة لجارتها .

وهو شبه مهما كبر إلا أنه مظهرى . . . وكأنه إلماحة عابرة إلى الطبيعية الحيوانية فى الإنسان .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا . . ﴾ (صدق الله العظيم) (التين - الآيات ٤ - ٦)



القيم

. . . كل ما هو ذو قيمة يحمى أو يردع .

والدين هو أصل القيم ومنبعها وهو السياج الحامى من الوقوع فى الرذيلة أو على الأقل من الانغماس فيها .

والعلم كذلك قيمة .

والسمعة الطيبة قيمة .

ونقاء الأصل قيمة .

والذين ينحدرون من أصول طيبة قل أن يتبعوا الرذيلة ، والذين يتمتعون بسمعة حسنة يخافون المعصية وينأون عنها ، وأولوا العلم يمنحهم علمهم رقيًا وطهارة قل أن تجتمع مع نقيصة .

وإذا كان الدين هو منبع القيم ، وإذا كان العلم من بعده والسمعة الطيبة ونقاء الأصل حواجز بين الإنسان وبين الرذيلة ، فإن كل هذا حتى التدين لا ينفى الرذيلة عن الإنسان نفيًا كليًا .

فالأصل فى سلوكه إمكانية النسيان وضعف العزم .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾

(صدق الله العظيم) (طه - الآية ١١٥)

ومن هنا شرعت التوبة .

« **لو لم تخطئوا لأرسل الله قومًا غيركم يخطئون ثم يتوبون** » صدق رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

وإذا تحدثنا عن نوازع الدين فإنه حديث عن الحب والكره ، فالدين يجعل بين الإنسان والمعصية كرهًا وبغضًا .

﴿ **وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ﴾ (صدق الله العظيم) (الحجرات - الآية ٧)

وإذا تحدثنا عن بقية الزواجر فإنه حديث عن الخوف والتحرج ، فالإنسان ينظر خلفه فإذا وجد ما يخاف عليه أدبر وارتدع ، وإلا أقبل ورحب .

ولا نقصد بالعلم الكتب والشهادات وحسب . بل هو أيضًا كل مهنة أو حرفة اكتسبت بعد خبرة طويلة وصبر عظيم .

فالترزى صاحب حرفة تحتاج إلى الخبرة والصبر .

والنجار كذلك .

والتاجر المحترف رأس ماله هو سمعته ، وهى قيمة يخاف عليها وتردعه عن الجريمة .

أذكر أن النيابة العامة أرسلت إلىّ فتاة تبلغ من العمر عشرين عامًا ، لبيان ما إذا كان هتك عرضها من عدمه . كما أرسلت إلىّ المتهم وهو رجل يبلغ من العمر حوالى خمسين عامًا لبيان ما إذا كان به مظاهر إصابية أحدثتها الفتاة وهى تقاومه من عدمه . وكانت الفتاة قد ادعت على هذا الرجل اغتصابها .

قمت بمناقشتها فأصرت على أقوالها ، ثم قمت بمناقشة الرجل فأصر على إنكار ما نسب إليه من اتهام . وأذكر أنه أخبرنى أنه يعمل نجارًا فى محل مجاور

لمسكن الفتاة ، وأنها من دور أولاده الذين يدرسون فى الجامعة ، ومنهم من يعمل فى وظائف مرموقة ، وأن كل علاقته بالفتاة لا تتعدى حدود الأب الذى يساعد ابنته ويعطف عليها .

وتكوّن داخلى إحساس بصدق رواية الرجل . لكنه إحساس لا يمكن أن أرتكن إليه أو أثق فيه .

قمت بفحص الفتاة وخلصت إلى الآتى :

« والمذكورة خالية من مظاهر إصابية حديثة تشير إلى حدوث عنف جنائى أو مقاومة وهى متكررة الاستعمال من الخلف لواطًا بإيلاج . وغشاء بكارتها به تمزق قديم واصل للمهبل فى تاريخ سابق على تاريخ الواقعة المدعى بحدوثها » .

وبمواجهة الفتاة اعترفت أنها كانت لمدة عام على علاقة بشاب ، أبوه يعمل بأحد الدول العربية ، وأنه كان يستعملها جنسيًا من الخلف ، ثم عاشرها من الأمام لمدة قصيرة . وأنه كان يعدها بالزواج حين يعود أبوه ، ثم خلى بها وعزف عن الزواج منها وسافر إلى والده فى الخارج . حينئذ وحتى لا ينكشف أمر الفتاة أمام زوج المستقبل الذى لم يأت بعد ، دبرت هذه المؤامرة بهذا الرجل الطيب .

فسبحان من لا يغفل ولا ينام .

وبعد . فإنه من الخطأ الكبير أن نناقش مشاكلنا فرادى ؛ الجريمة - البلطجة - الفساد - البطالة - تأخر سن الزواج - مشاكل الإسكان - مشاكل التعليم - مشاكل المرور - ضعف الروابط الأسرية . . . .

جميعها حزمة واحدة . . . ويجب أن تناقش على هذا الأساس .

وأرى أن مردها جميعا أن الإنسان صار ينظر خلفه فلا يجد ما يخاف عليه . ومن ليس وراءه قيمة يخاف عليها يسهل عليه أن يتردى فى مزالق الوحل .

وأرى أن التعليم (بعد الدين) هو الأساس .

التعـليم يجـب أن يعــود كمـا كان قيمة ولـيـس كتابًا أو امتحـانًا أو شهـادة أو وظيفة.

والحرفة يجب أن تعود كما كانت قيمة قبل أن تكون وسيلة كسب وعملة وسلعة .

والإنسـان هو أعظم قـيـمة ، والاهتمـام بأمـره والحنو عليـه وتفـهم أسـراره الغامضة هو أعظم مهمة وأسمى غرض .



سر فى الإنسان غامض

✍ . . . « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » صدق رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وقال أيضًا « إن الشيطان يجرى فى ابن آدم مجرى الدم فى العروق » .

لا شك أن من البشر من هو قوى الإرادة رابط الجأش مستقيم على الصراط . ومنهم من هو غير ذلك ضعيف الإرادة خَوِر النفس نزوانى الطبع .

وإذا كان الصنف الثانى من البشر تكثر فيهم الخطيئة ويرتعون فى عالم الجريمة ، فإن الصنف الأول لا يصح أن نستبعدهم من احتمالية الوقوع فى الخطيئة .

والواقع أن الإنسان لغز كبير . وأحيانًا ما تحدث جرائم بشعة ثم نفاجأ بأن مرتكب الجريمة ممن يظن أنهم حماة المجتمع أو من يسمون بالصفوة أو ربما برموز الصفوة .

وهو أمر على الفهم عسير ، وربما لا نرى له تفسيراً إذا نظرنا إلى الإنسان والمجتمع نظرة كلاسيكية قاصرة .

إن البناء الهرمى هو الأصل فى تشكيل المجتمع وبنيانه . العامة يمثلون القاعدة ثم طبقة المثقفين ثم الصفوة ثم رموز الصفوة .

والمفترض أن المجتمع سليم البنيان القائم على المؤسسات يرفع رموزه ويتيح

لهم فرصة الترقى على درجات السلم الاجتماعى . وهم فى النهاية موازينه التى لا يصح أن تختل .

المفترض فى المجتمع القائم على المؤسسات أن يمنح الفرصة كاملة للإنسان أيًا كان نوعه أو جنسه أو دينه فى الصعود والارتفاع .

وبقدر ما تمتلك الأنفس من قدرة وعزيمة وصلابة ، بقدر ما تكون قدرتها على تخطى الصعاب والوصول إلى قمة السلم الاجتماعى .

وحينما يختل البناء فإن شيئًا آخرًا يحدث . وحينما تكون المباراة غير شريفة وقواعد اللعبة غير معقولة فلك أن تتخيل بعد هذا كل غريب يحدث فى المجتمع .

فى البناء الاجتماعى السليم العقل يسيطر والغدد تتحكم والعظام تشكل الهيكل الخرسانى . صحيح أن طفرات شيطانية تحدث كل حين فتحاول خلية هنا أو خلية هناك أن تتسرطن أو تخل بقواعد اللعبة ، إلا أن البناء الاجتماعى السليم غير غافل عنها ، إنه يلاحقها حتى يقصيها أو يعود بها إلى حجمها ووضعها الطبيعى .

فى البناء الاجتماعى المختل شىء آخر يحدث ، الخلايا تتسرطن ، وربما ترى خلية نسيجية تتعظم[1] ، وربما نرى خلية أخرى تتكاثر وتتعاظم ثروتها دون رقيب أو حسيب ثم نفاجأ بها على قمة السلم تأخذ وضعها كأحد وجهاء المجتمع أو رموزه المحدثين . حينئذ حدّث عن هذا الجسد ولا حرج .

إنه ليس عيبًا فى المجتمع أن تقع جرائم أو تحدث أخطاء . إنما العيب ألا يصرخ الأفراد فى وجه الخطيئة ، وأن يغفل البناء الاجتماعى عن مجرم أو يسهو عنه حتى يصير حوتًا .

---

(١) من المعروف باثولوچيا أنه فى بعض الحالات السرطانية تتحول بعض الأنسجة الرخوة إلى مادة عظمية ، وربما لاحظ هذا بعض الناس فى البهائم فأوردوا المثل « قليل البخت يطلع له العظم فى الكرشة » .

هذا على مستوى البناء الاجتماعى . أما على مستوى البناء الفردى فأحسب أنه لا عصمة إلا لنبى . وأن الإنسان مهما عظم شأنه وعلا قدره فلا يمكن أن نفترض فيه العصمة أو أن نستبعد عنه لحظات الضعف . فالواقع أن لكل إنسان لحظات ضعف من الممكن أن يسقط أثنائها .

وإذا كانت الفيزيقيا الكلاسيكية تنظر إلى الذرة على أنها نواة يدور حولها الإلكترونات فى مدارات دائرية أو شبه دائرية محددة .

فإن النظرية الحديثة ترى الذرة غير هذا . إنها ترى جسيمات النواة تتحرك والإلكترونات تتحرك ، ولا يوجد شىء مجزم بالحركة الدورانية الدائرية .

ولقد اكتشف العالمان دى بروليه وهايزنبرج نظرية الاحتمالات وتبعهما أينشين بنظرية النسبية ، ومن خلالهما نستطيع أن نفهم حركة الإلكترون حول النواة على أنها حركة دورانية نعم ، لكن احتمالية حيودها عن المدار الدائرى كثيراً أو قليلاً وارد . فالإلكترون قد يتهاوى نحو النواة وقد يقفز بعيداً عنها .

وإذا كانت هذه هىء قوانين الفيزيقيا الحديثة أو ميكانيكا الكوانتم للذرة والمادة والموجة الكهرومناطيسية . فإن رؤية البيولوچى للخلية فى الكائن الحى لا تختلف كثيراً عنها . الخلية فى الكائن الحى لها قوانينها التى تحكمها وتسيطر عليها وتحدد لها وظيفتها وحجمها ودرجة تكاثرها وكمية المخلفات التى تتركها ، وكمية الغذاء التى تتناولها ، وكمية الأكسچين التى تتنفسها ، لكن احتمالية حيود الخلية عن هذه القوانين وارد . حينئذ قد تتحول الخلية المسالمة إلى خلية آكلة مدمرة كما يحدث فى الأمراض الروماتيزمية . وقد تتحول الخلية إلى كائن سرطانى لا يتبع قواعد بيولوچيا الكائن الحى ولا قوانينه .

من هذه وتلك ، من نظرية الاحتمالات فى فهم الموجة الكهرومغناطيسية وفهم جسيمات الذرة ، ومن رؤية البيولوچيا للخلية الحية ، أستطيع أن أرى هذا الشىء الذى نسميه الإرادة . إرادة الإنسان .

والواقع أن إرادة الإنسان سر عظيم لا يحيط به علماً إلا الله .

إلا أننى أحسب أن الله سبحانه قد خلق فى كونه من النواميس والقوانين ما نستطيع أن نقترب به من فهم هذا الشىء العظيم والسر الغامض .

وقد يحق لى أن أرى الإرادة كما رأى دى بروليه الموجة الكهرومغناطيسية أو كما رأى « هايزنبرج »[1] الجسيمات الكهربائية فى الذرة أو كما رأى البيولوچى الخلية فى الكائن الحى .

نستطيع أن نفهم الإرادة على أن لها مستويات وربما قوانين ونواميس .

فالدين يصقل الإرادة .

والعلم يصقل الإرادة .

والبيئة الصالحة تصقل الإرادة .

وقوانين المجتمع تصقل الإرادة .

لكن مهما صقلت الإرادة وصلب عودها فإن احتمال سقوطها وارد ، واراد أن يسقط رجل الدين ، واراد أن يسقط رجل العلم ، ووارد كذلك أن يسقط ابن الأصول .

على أن رؤيتى هذه لجوهر الإنسان أو إرادته لا يصح أن تزعجنا أو تخيفنا من الإنسان ، فكما قلت لا شىء فى هذا الكون ليس له قوانين ونواميس تحكمه . إنما الذى يجب أن يستقر فى نفوسنا ، والذى يصح أن نفسر به كثيراً من الشواهد والوقائع أن نرى الإنسان على حقيقته كائنا له قوانينه ونواميسه ، لكن احتمالية الخروج عن المألوف ، والسقوط فى الهاوية وارد .



(١) موجز ما يقال عن هذه النظريات الفيزيقية أن الجسيم الدقيق يتعذر الجزم بتحديد موضعه طالما جزمنا بتحديد سرعته . كما يتعذر الجزم بتحديد سرعته طالما جزمنا بتحديد موضعه .

شهود تحت الثرى

. . . من أبشع الجرائم التى باشرتها جثة فتاة صغيرة مجهولة الاسم والهوية عثر عليها مضرجة فى دمائها بأحد القرافات .

انتقلت لفحص وتشريح الجثة . وجدتها لفتاة تبلغ من العمر خمس سنوات ، كما وجدت الجمجمة بها كسور وتكاد تكون مهشمة ، وبفحص غشاء البكارة وجدنا تمزقًا حديثًا ، كما وجدنا سحجات ظفرية بمنطقة الفخذين .

وبمزيد من الفحص عثرت على عدة شعرات بأظافرها قمت بالتحفظ عليها كما أخذت مسحة مهبلية لفحصها .

وقمت بمعاينة مكان الحادث ووجدت دماءً متناثرة فى مواقع مختلفة من القرافة على الأرض والجدران ، وبالبحث عثرت على حجر متوسط الحجم عليه تلونات دموية فقمت بالتحفظ عليه كذلك .

والواقع أن كل هذه المشاهدات تشير إلى أن الفتاة الصغيرة قد قاومت العربيد بكل ما تملك من قوة ، وما السحجات الظفرية بالفخذين والشعرات المعلقة بأصابعها الرقيقة إلا محاولات مستميتة منها للحفاظ على شرفها . ولا شك أن قواها قد خارت أمام هذا الذئب فأوقع بها ونال ما تمنى .

حتى إذا قضى حاجته الشيطانية تهاوت قواه بفعل السكرة ، والمسكينة تحته تتحين الفرصة حتى تمكنت من الانفلات منه ، وانتفض الكلب المسعور خوفًا من

اكتشاف أمره فجرى ورائها يلاحقها ويحطم رأسها بحجر . المسكينة تجرى وهو يجرى من وراءها ، يتهشم رأسها فلا يرحمها ، تلفظ أنفاسها فلا ينفطر قلبه ، تتناثر دماؤها على جدران القرافة فلا يزرف دمعه .

ومما لا شك فيه أن الأجساد الراقدة تحت الثرى ، وأن الرفات والعظام النخرة ، وأن الدود والأكفان المهلهلة الملوثة بألوان وروائح التعفن الرمى ، لا شك أن كل هؤلاء قد أزعجتهم تلك الجريمة البشعة التى ارتكبت فى حياضهم وهم لا يستطيعون لها دفعًا . ومما لا شك فيه كذلك أنهم جميعًا تمنوا أن لو استطاعوا أن يشهدوا على قاتل الفتاة المسكينة .

والواقع حقًا أنهم شهدوا عليه وسمعت شهادتهم . شهود تحت الثرى ، شهود بعدد حبات حصى القرافة وترابها .

وأقف أمام جثمان الفتاة النحيف وأستمع مع تسبيحات حصى القرافة وترابها إلى حديث المولى القدسى .

« إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم .

أخلق ويعبد غيرى .

أرزق ويشكر سواى .

خيرى إلى العباد نازل .

وشرهم إلى صاعد .

أتحبب إليهم بنعمتى وأنا الغنى عنهم .

ويتباغضون إلىّ بالمعاصى وهم أحوج ما يكون إلىّ » .

* * *

وكان معى ضابط مباحث دمث الخلق بمديرية الأمن قسم جرائم النفس وأقسمنا أن نبذل قصارى الجهد للوصول إلى المجرم القاتل .

وتم ضبط عدد من المشتبه فيهم - لأقوم بأخذ خصلة من شعر كل واحد لفحصها ومقارنتها ميكروسكوبيًا بالشعرات التى عثرت عليها بأظافر الفتاة . . . وبعد طول بحث وفحص تم تحديد المتهم الذى ارتكب هذه الجريمة البشعة .

والواقع أننى أنصح أولياء الأمور أن يتقين الله فى بناتهن الصغيرات فلا يسمحن لهن بالخروج منفردات فى الخلاء أو فى وقت متأخر من الليل ، وأن يتعهدوهن بالتربية الصالحة والأسوة الحسنة . ولنتذكر حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

من كان له أربع بنات فتعهدهن وأحسن تربيتهن كن له يوم القيامة سترًا من النار قيل يا رسول الله وثلاثة قال وثلاثة قيل يا رسول الله واثنتان قال واثنتان (أو كما قال وصدق رسول الله) .



قميص ابن يعقوب

. . . ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾

(صدق الله العظيم) (يوسف - الآيتان ٢٦ - ٢٧)

الذى أدلى بهذا الرأى فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام هو أول طبيب شرعى عرفه التاريخ .

القضية هى ادعاء هتك عرض .

الطبيب الشرعى يطلب فحص الملابس لحل لغز القضية !

وأحيانًا كثيرة تكون الملابس هى الشاهد الوحيد فى القضية . وأذكر فى هذا الصدد قضية ملخصها كما جاء بمذكرة النيابة أن شابًا أثناء قيامه بتنظيف سلاح خرطوش خرجت طلقة فأصابته فى بطنه . وقد حُمل الشاب إلى المستشفى وظل بها لمدة أسبوعين أجرى خلالها عملية استكشاف بالبطن وتم استخراج جسم غريب من طلقة السلاح ، نسميه « حشاراً » .

وقد أُرسل إلىّ الشاب لتوقيع الكشف الطبى الشرعى عليه ، لبيان ما به من إصابات وسببها وتاريخ وكيفية حدوثها والأداة المستخدمة وموقف الضارب من المضروب بعداً ومستوىً واتجاهًا ، وهل إصابته تحدث من مثل التصوير الوارد على لسان الشاب ، كما أرسلت إلىّ النيابة السلاح الخرطوش والحشار

المستخرج ، لبيان ما إذا كانت إصابة المجنى عليه تحدث من هذا السلاح من عدمه ، وكذا بيان نوع هذا السلاح وعياره .

والسلاح الخرطوش بداية هو سلاح نارى يتميز بإعداده لإطلاق طلقات خرطوش ، وهى عبارة عن شكل اسطوانى غير مدبب معبأ بالبارود ومقذوفات صغيرة كروية الشكل ، وتتراشق هذه المقذوفات بالجسم الموجهة إليه وذلك عند اشتعال البارود . والجزء فى الطلقة الذى نسميه حشار هو هذا الجزء فى الطلقة الذى يفصل بين البارود والمقذوفات الرشية .

قمت بتوقيع الكشف الطبى الشرعى على الشاب المصاب ووجدت جروحه الإصابية قد تغيرت معالمها بفعل التداخلات الجراحية التى أجريت فى المستشفى المعالج ، وعلى هذا لم أخرج من مناظرة جسم المصاب بمعلومات ذات قيمة فنية عالية تفيد القضية ، لكن المظاهر الإصابية وإن تغيرت بفعل مرور الوقت والتداخلات الجراحية بجسم المصاب إلا أنها تظل محفوظة بالملابس التى كان يرتديها وقت الحادث .

وبناءً عليه طلبت إرسال الملابس وقمت بفحصها ، وكان الفحص ثريًا بالمعلومات التى أفادت القضية ، وفى نهاية الرأى خلصت إلى أن إصابة الشاب حدثت من مسافة مترين ونصف – أى أن المسافة بين فوهة ماسورة السلاح وبين جسم المجنى عليه وقت الإطلاق كانت مترين ونصف .

وهذا ينفى نفيًا قاطعًا حدوث الإصابة وفق ما جاء فى رواية الشاب ، إذ إنه حينما يمسك السلاح بيده لتنظيفه ستكون فوهة ماسورته على مسافة من جسمه حوالى نصف متر فقط أو أقل . كما ثبت لى من خلال فحص الحشار المستخرج من جسم المصاب والسلاح الخرطوش المدعى باستخدامه فى حدوث الإصابة أنهما من عيارين مختلفين وبناءً عليه فالسلاح المدعى بحدوث الإصابة منه ليس هو المستخدم فى الحادث .

ما أكثر القضايا التى يتحدث فيها الطبيب الشرعى مع ملابس المصاب . وأنا أنصح جهات التحقيق بأن تبادر بالتحفظ على الملابس التى يرتديها المصابون وقت الحادث فى قضايا الإصابات ، وكذا فى قضايا الاغتصاب على أن تلف فى أكياس من النايلون وأن تحفظ بحالتها دون أن تغسل ، فما أكثر المعلومات التى يحصل الطبيب الشرعى عليها من فحصه للملابس .

وأحيانًا ما يلحق البعض إصابات افتعالية بأنفسهم ليلفقوا تهمًا لآخرين أبرياء . وقد عرض على يومًا قضية لرجل وولده بهما إصابات ، وروايتهما كما جاءت على لسانيهما بمذكرة النيابة أن جاراً لهما اعتدى على الرجل بسكين أصابته فى قدمه ، واعتدى على ابنه بنفس الأداة فمزقت ظهره .

عُرض علىّ المصابان بعد أسبوعين من تاريخ إصابتهما ، وذلك بعد أن تماثلا للشفاء على أيدى الأطباء المعالجين . وعليه فقد اطلعت على وصف الإصابات وقت أن كانت حديثة بالأوراق الطبية ووجدت أن ما جاء بوصفها يتوافق مع رواية الرجل وولده .

فحصت الرجل فبدا لى أثر لجرح قد يكون قطعيًا أحدثته آلة حادة ، وقد يكون ناريًا أحدثه مقذوف نارى ميزابى - أى مقذوف نارى كان فى وضع تماس مع الجزء المصاب ولم يخترقه . وبمزيد من التدقيق فى قدم المصاب تبين لى وجود ثلاثة آثار أخرى لجروح رشية أحدثتها أجسام رشية تُطلق من سلاح نارى خرطوش . وبإجراء أشعة على قدم الرجل تبين فعلاً وجود ظل لرشة مستقرة بالقدم . وبعد أن فرغت من فحص الرجل قمت بفحص الابن فوجدت أثاراً لإصابات قطعية بالظهر إلا أن شكلها كان رفيعًا بحيث يكشف أن الأداة المستخدمة ذات نصل حاد ورفيع كما كانت سطحية بحيث تكشف أن فاعلها كان حذراً عند إحداثها مما يلقى بظلال من الشك حول رواية الرجل وابنه . ثم طلبت من النيابة إرسال الملابس التى كان يرتديها الابن وقت الحادث . وقمت بفحصها

فتبين أن الملابس بها إصابات فعلاً بالظهر . فطلبت من الولد المصاب أن يقوم بارتداء الملابس المحرزة فتبين لى الآتى :

١ - موضع الإصابات وشكلها بالملابس يختلف عن موضع الإصابات وشكلها بجسمه .

٢ - الإصابات بالملابس تأخذ شكلاً زجزاجيًا غير منتظم فى حين أن أثر الإصابات بجسم الولد منتظمة .

٣ - وجود فقد مستو الحواف مع إصابات الملابس .

وعليه فالشكل الزجزاجى والفقد المستو الحواف لإصابات الملابس يشيران إلى أن إصابات الملابس قد تمت عن طريق استخدام مقص . بل ويمكننا أن نحدد أكثر ونقول إن المقص لم يستخدم كأداة قطع بل استخدم بطريقة مسك قطعة من قماش الملابس واستئصال جزء صغير منها طولى الوضع .

وعليه فتصورى للقضية كالآتى :

ربما بدأت القصة بإصابة بسيطة للوالد حدثت بطريق الخطأ ، فيبدو أن الرجل كان ممسكًا فرد خرطوش يحاول تنظيفه أو تجريبه وكان يصوبه ناحية الأرض فانطلقت طلقة خرطوش فأصابت بضع رشات قدمه ، وكان أحدها يأخذ شكلاً ميزابيًا بالقدم (حيث تترك الإصابة النارية الميزابية جرحًا قد يبدو أحيانًا على أنه جرح قطعى) .

نظر الرجل إلى قدمه ورأى جرحًا يبدو للعين الغير خبيرة أنه جرح قطعى ، فحدثته نفسه أن يلفق تهمة لجاره ويتهمه أنه قام بضربه فى قدمه بسكين . وحتى يحبك التهمة جاء بالابن وأحدث به إصابات سطحية فى ظهره بآلة حادة .

ويبدو أن الرجل كان لديه قدر من التأنى وعدم العجلة ، فكلما حبك التهمة وأخذ يفكر ويتدبرها وجد أن هناك مزيداً من الحبكة يستطيع أن يفعله ، فما كان منه إلا أن جاء بقميص لابنه وقام بقطع أجزاء طولية صغيرة منه بمقص .

لقد ظن الرجل أن القميص هو آخر ما لديه لحبك تهمة ضد إنسان برىء ، ولم يكن يظن أن القميص هو الدليل الفنى الذى سيقاد به هذا الرجل المفتئت إلى المحكمة بجريمة تلفيق التهم . وربما لم يذكر أيضًا أنه قديمًا جاء إخوه يوسف بقميص مخضب بالدماء يلفقون به تهمة ضد الذئب البرىء ، ولم يكونوا يعرفون أن يعقوب كان لديه من الحكمة والبصيرة ما يستطيع أن يكشف به زيف ما جاءوا به من بهتان وإفك .



الانتحار

. . . الانتحار فى عرف القانون جريمة قتل . . . القاتل فيها هو عين المقتول .

وعليه فإنه ينتدب الطب الشرعى فى مثل هذه القضايا لبيان ما إذا كان الأمر حقًا انتحاريًا أم جنائيًا أم عارضًا .

ولقد أكدت الشريعة الإسلامية السمحاء على تحريم الانتحار ، والرسول الكريم ينهانا عن مجرد تمنى الموت فيقول ما معناه لا يتمنين أحدكم الموت فإن كان لابد فاعلاً فليقل اللهم اجعل الحياة زيادة لى فى كل خير واجعل الموت راحة لى من كل شر .

بل نهانا صلّى الله عليه وسلّم عن اليأس والقنوت من رحمة الله ودعانا إلى التوبة وطلب المغفرة فيقول سيدنا رسول الله ﷺ فى الحديث الذى يروية الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه (إن الله أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل فقد راحلته بأرض فلاة وكان عليها طعامه وشرابه حتى أيس من رجوعها فأخذ نفسه يستظل تحت شجرة وبينما هو كذلك إذا راحلته تعود إليه فقام الرجل وحمد الله فقال « اللهم أنت عبدى وأنا ربك » أخطأ من شدة الفرح) .

وقد رأيت حالات كثيرة لفتيات أقدمن على الانتحار بعد أن أغواهن الشيطان وارتكبن الفاحشة . وأحيانًا يكشف تقرير الطب الشرعى عن تمزق غشاء

البكارة لجثة بنت لم يعرف عنها الفحش لا من قبل أهلها ولا من قبل جهات البحث والتحرى ولا حتى فى تحقيقات النيابة . وأعتقد أنه مأزق للطبيب الشرعى بين أن يكتم سر الفتاة ويستر عليها وبين أن يكشف الحقيقة ، لكنى أعتقد أن الرحمة « فى كشف الحقيقة » مهما كانت قاسية . وحين أقع فى مثل هذا الموقف أذكّر نفسى بأن الحقيقة مشتقة من الحق ، والحق هو اسم من أسماء الله الحسنى . ويخلع الحق فيضًا من فيوضاته على الحقيقة وبالتالى فهى أبدية سرمدية ظاهرة باطنة لا يمكن كتمانها أو إخفاءها ولو حاولنا جاهدين فى ذلك .

وأحيانًا أخرى اكتشف أثناء إجراء التشريح كبر حجم الرحم وعندما أشق عليه أجد جنينًا ، وأكثر من مرة أجد توأمًا . وهو موقف رهيب وآية من آيات الله أقف أمامها مرتاعًا من خشية الله ولا أملك إلا أن أدعوا لهذه الفتاة القاتلة لنفسها ولوليدها أن يغفر الله لها ، فقد أمرنا صلّى الله عليه وسلّم ألا نسب الموتى ، وأقول عسى أن يغفر الله لها بواسع رحمته .

وفى الأثر الكريم أن الله ينادى ويقول :

« عبدى أذكرك وتنسانى

وأذكرك فلا تخشانى

لو أمرت الأرض لابتلعتك

ولو أمرت البحار لأغرقتك

ولكننى أأخرك إلى أجل قد سميته لك

ولابد لكل نفس أن تلقانى

أعدّ عليهم أنفاسهم عدًا

وأذكّرهم بأعمالهم ومعاصيهم

حتى إذا أيقنتَ أنك من أهل النار

أوليتك غفرانى

ومنحتك محبتى

ومن أجلك سميت نفسى العزيز الغفار »

وأكثر المواقف التى تغضبنى وتخرجنى عن شعورى أن أسمع من يقوم بلعن جثمان حتى ولو كان منتحراً أو معروفًا عنه الإجرام ، وأقول دائمًا إن الإنسان مهما كان ظلمه وفجره فإنه بعد خروج الروح يصير أضعف مخلوقات الله . إنه جثة هامدة لا قوة لها ولا حركة ، عاجزة أن ترد عن نفسها ذبابة أو تدفع حشرة ضئيلة . . إنه الآن بين يدى مولاه إن شاء عاقبه وإن شاء غفر له . . وأشمئز من الإنسان الذى يعتدى على الضعفاء أو حتى يعتدى على القوى فى فترة ضعفه ، فجميعنا مهما كان قويًا يبتلى بلحظات ضعف ، وجميعنا مهما كان قويًا حتمًا صائراً إلى أشد حالات الضعف . بل إلى الضعف الذى لا ضعف بعده وهو الموت .

يقول تعالى فى الحديث القدسى الشريف

« إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم .

أخلق ويعبد غيرى .

أرزق ويشكر سواى .

خيرى إلى العباد نازل .

وشرهم إلى صاعد .

أتحبب إليهم بنعمتى وأنا الغنى عنهم .

ويتباغضون إلى بالمعاصى وهم أحوج ما يكون إلى .

من أقبل منهم لاقيته من قريب .

ومن أدبر ناديته من بعيد .

أهل شكرى أهل محبتى .

أهل ذكرى أهل عبادتى .

وأهل معصيتى لا أقنتهم من رحمتى .

إن تابوا إلىّ فأنا حبيبهم فإنى أحب التوابين وأحب المتطهرين .

وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم .

أبتليهم بالمصائب لأطهرهم بها .

الحسنة عندى بعشر أمثالها وأزيد .

والسيئة عندى بمثلها وأعفو .

وأنا أرفق بعبادى من الأم بوليدها » .

ومن قضايا الانتحار التى أذكرها والتى أثقلت على نفسى وعانيت منها كثيراً قضية مجند كان يقف أثناء الخدمة فى الدشمة ، وسمع زملاؤه صوت عيار نارى ينطلق من ناحية هذا المجند ، فلما اتجهوا إليه وجدوه غارقًا فى دمائه ومتكئًا بذقنه على السلاح .

قمت بفحص وتشريح الجثمان . وتبين لى وجود إصابة نارية لفتحة دخول بأعلى منتصف الرقبة ، وفتحة الخروج مقابلها . وحول فتحة الدخول علامات قرب إطلاق تشير إلى أن مسافة الإطلاق كانت دون النصف متر . كما وجدنا أسفل الذقن « حرقًا جلديًا سطحيًا حديثًا » .

ولقد تبينا من دراسة شكل وطبيعة هذا الحرق أنه يحدث من مثل فوهة البندقية التى أطلق منها الرصاص مباشرة ، نتيجة لسخونة ماسورة السلاح عند الإطلاق . فإنكفاء المجنى عليه على فوهة ماسورة السلاح بعد انطلاق الرصاصة منها هو محدث هذا الحرق .

وقد استبعدنا الدافع الجنائى فى هذا الحادث لأكثر من سبب . منها وجود الحرق المشار إليه ووضع الجثمان المنكفئ على فوهة السلاح الخاص بالمجنى عليه .

ومنها أيضًا صغر مسافة الإطلاق التى حددناها - أى أن العيار النارى أصابه من داخل الدشمة ، وصغر حجم الدشمة يصعب معه تصور أن يدخل إليه أحد ويضربه بداخلها .

وبعد استبعاد الدافع الجنائى بقى أمامنا احتمالان يجب أن ندرسهما .

الاحتمال الأول أن يكون الدافع انتحاريًا أى أنه قصد قتل نفسه . والاحتمال الثانى أن يكون الحادث عارضًا أى خرجت طلقة من السلاح عرضيًا فقتلته .

ربما يقول قائل أنه طالما استبعدنا الاحتمال الجنائى فالاحتمالان الآخران لا يختلفان كثيراً ، وطالما أننا اطمأننا أن أحدًا لم يقتله فيكفى هذا .

طبعًا هذا تفكير قد يكون سطحيًا والأمر أخطر من هذا . وذلك لأنه مجند مات أثناء الخدمة . إنه مجند بسيط ربما له أب شيخ وأم مسنة يرعاهما وربما له أخوة ينفق عليهم وربما كذلك له زوجة وأولاد يعولهم . موته فى حادث عارض أثناء الخدمة يترتب عليه أمور مادية مثل معاش أو تعويض أو خلافه (ومعذرة لكلمة تعويض فالإنسان لا يعوض بمال أبدًا) وانتحاره إذن يسقط عنه هذا الحقوق .

كان السؤال المطروح أمامى - هل الحادث انتحارى أم عارض .

والله يشهد كم درست كلا الاحتمالين ، وكم عانيت وأنا أسطر رأيى ، لقد تمنيت أن لو جنحت الأدلة الفنية معى نحو الاحتمال العارض حرصًا على عوائل المجند المسكين . ولكن لا يستطيع الطبيب الشرعى أن يجنح بنفسه نحو هواها . وكان رأينا أن وجود إصابة المذكور فى منتصف العنق عند الخط المتنصف الأمامى ترجح القصدية فى الإصابة فى مقتل . ووجود نفس الإصابة عند أقصى أعلى العنق يرجح كذلك القصدية فى الإصابة - إذ إن إصابة أقصى أعلى العنق يرجح أن يقصد الشخص رفع رأسه حتى يتمكن من الإصابة فى هذا الموضع ، وعليه ؛ فإننا نرجح أن يكون الحادث انتحاريًا .



جناية وليست انتحاراً

. . . الطبيب الشرعى لا يدرس التشريح وحسب . ولا يصح أن يكتفى بعلوم الطب فقط ، بل كل العلوم والمعارف روافد لفنه وعلمه ، ولقد باشرت قضايا كان بطلها علم الفيزيقيا . ومن ذلك مثلاً الواقعة الآتية والتى أدلى بها الشهود كما يلى :

شاب يمشى فى أحد شوارع القرية . . . ومن بعيد موكب عرس ، وطلقات نارية تحتفى بالموكب متجهة إلى أعلى .

ومقذوف يرتفع إلى أعلى من بعيد ثم يسقط عن قريب متجهًا نحو الأرض ، وقبل سقوطه علي الأرض يرتطم برأس الشاب فيقتله .

قمت بالتشريح وتبينت وجود جرح لفتحه دخول نارية بمقدمة فروة الرأس كما تبينا وجود كسور بالجمجمة وتهتك بالمخ .

ويبقى السؤال هل وفاة الشاب وإصابته تحدث وفق التصوير الذى أدلى به الشهود ؟

درست القضية واطلعت على مراجع علمية فى الفزيقيا والميكانيكا وتبين لنا رياضيًا وبكثير من التبسيط الذى لا يخل بالنتيجة نستطيع أن نقول إن المقذوف يفقد سرعته تمامًا حتى تصير مساوية للصفر وذلك عند أعلى نقطة يصل إليها ، ثم

يعود بعد هذا متجهًا إلى الأرض بفعل وزنه ، وبمعنى آخر أن المقذوف عند سقوطه يكون قد فقد طاقة الدفع المتولدة من اشتعال البارود ، وأنه حينما يعود ليسقط نحو الأرض يكون تحت تأثير قوة الجاذبية الأرضية ، وهى قوة تمده بطاقة حركة بسيطة بحيث لا يمكن تصور قدرة المقذوف معها على اختراق جمجمة شاب ، وبمعنى آخر أن المقذوف الذى يمكن أن نعزى إليه إصابة الشاب ووفاته لابد أن يكون مكتسبًا لطاقة حركة مستمدة من احتراق البارود ، وعليه فإصابة الشاب يستبعد حدوثها من مثل التصوير الوارد على لسان الشهود . وقد تأكد هذا الرأى عندى بعد دراسة شكل وطبيعة الكسر بالجمجمة وكذا موضع الجرح المصاحب للإصابة بفروة الرأس .

وهكذا تتحول القضية من شاب يموت بعيار طائش . . . يعنى جريمة ضد مجهول ، إلى قضية جنائية أركانها قاتل ومقتول وجريمة قتل .

الواقعة الثانية التى أذكرها فى هذا الصدد ، قضية سيدة أدلى شهود الحادث أنها انتحرت بتوجيه مسدس زوجها إلى صدرها حيث اخترق المقذوف قلبها وماتت فى الحال . هذا هو التصوير الأولى للحادث . قمت بالتشريح ! تبينا وجود جرح نارى بالصدر وآخر بالظهر مقابلة . حسن ، لكن أيهما يمثل فتحة الدخول وأيهما يمثل فتحة الخروج ؟ والإجابة عن هذا السؤال سيتوقف عليها تحديد ما إذا كانت الوفاة انتحارية أو جنائية .

بالفحص تبين لنا أن فتحة الدخول تقع بالظهر ، وأن فتحة الخروج مقابلها بالصدر .

والنتيجة القاطعة أن هذه السيدة لا يمكن أن تكون هى قاتلة نفسها . ولابد أن يكون قاتلها قد أطلق عليها الرصاص من الخلف . وهنا تتحول القضية من حكاية سيدة تنتحر إلى قضية جنائية أركانها قاتل ومقتول وجريمة قتل .

والواقع أن كـون الله بديع مـحكم وأن الله قـد خلق فى كـونه من النوامـيس والظواهر ما يعين كل صاحب مهنة على مهنته . وأزعم أن الطبيب الشرعى فى عمله هو أول المستفيدين من تلك النواميس والظواهر ؛ فلديه الجثمان .

ولديه المشتبه فيهم

ولديه السلاح والذخيرة

ولديه الملابس التى كـان يرتديهـا المجنى عليـه وقت الحـادث وربما كـذلك ملابس المتهم أو المشتبه فيهم ، ومن دراسةكل هذه وبما فيهـا من معالم ومعارف يخرج الطبيب الشرعى بالرأى حكمًا عدلاً بين الناس .



من ألطاف الله

. . . الله سبحانه وتعالى يبتلينا بالمصائب ليطهرنا بها وكان صلّى الله عليه وسلم إذا عاد مريضًا مبتلى يقول له « لا بأس طهور إن شاء الله » .

ومرادات الله نافذة فى خلقه حتى وإن جهلوا مغزاها ومرادها . فلا شك أن سنن الله ماضية وفق حكمة علوية لا يعلمها إلا هو ، وكما يروى أبو هريرة رضى الله عنه بسنده عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » وعنه أيضًا أنه قال « من يرد الله به خيراً يصب به » .

ومن رحمة الله بنا أن ينزل مع المصائب رحماته ونفحاته فيكون هذا لطفًا من ألطاف الله . وهناك حالتان أذكرهما دائمًا فى هذا الصدد ولا أستطيع نسيانهما .

أولهما قصة فتاة جاءتنى إشارة بتشريحها ، وانتقلت من مكتبى لأداء المأمورية بأحد مراكز أسيوط . كل المعلومات التى توافرت إلىّ بداية من لحظة تلقى الإشارة أن هذه الفتاة قد أخطأت وحملت سفاحًا ثم تخلصت من حملها وعارها وأقدمت على الانتحار .

نزلت من السيارة ودخلت إلى مكان التشريح ، الرجال والنساء يقفون بالخارج وجوههم غابرة عابسة وأعناقهم مدلاه خجلاً مما يعانون من الإحساس بالعار .

قمت بفحص الفتاة وتأكد لى سلامة غشاء البكارة .

ثم قمت بالتشريح وأنا لا أستبعد أن تكون الفتاة حاملاً فلقد كان حجم بطنها كبيراً فعلاً ولا غرابة فى هذا الشك ، فكثيراً ما رأيت حملاً وغشاء البكارة سليم وخال من التمزقات ! . قمت بالتشريح واكتشفت أن الفتاة ليست حاملاً وأن الرحمَ بحجم طبيعى . وكانت المفاجأة ؛ المبيض متضخم لوجود كيس كبير الحجم به ، وقد حدث التهاب بهذا الكيس ، وإلى هذه الحالة المرضية تعزى الوفاة .

الفتاة كانت بكرًا لم تسقط ، ولم تقع فى الرذيلة ، ولم تكن حاملاً ، إن تضخم المبيض وكبر حجمه المرضى أدى إلى كبر حجم البطن مما أعطى انطباعًا لدى أهلها بعد وفاتها أنها كانت حاملاً وأنها انتحرت لتتخلص من عارها .

فوالله ما حمدت ربى قدر ما حمدته على ظهور الحقيقة فى هذا الموقف العصيب .

فإذا كان من المؤلم على الأهل أن يودعوا ابنتهم الشابة فأكثر إيلامًا على النفس أن يشيعوها مع عارها وفحشها .

ووقعت بينى وبين نفسى فى حرج شديد .

إن الطبيب الشرعى لا يصح أن يدلى بمعلومات للجمهور أو أن يكشف شيئًا من أسرار مهنته قبل أن يرسل تقريره إلى جهات التحقيق .

وأقسمت بينى وبين نفسى لأمكثن بعد قضاء المأمورية بالمكتب حتى ولو سهرت طول الليل لأنجز تقرير هذه القضية حتى أسرع فى الكشف عن براءة الفتاة الشريفة وعودة الثقة إلى أهلها .

ثم حدثتنى نفسى ؛ وهل تعبر على إرجاء براءة الفتاة ولو ساعة واحدة ؟!

خرجت من قاعة التشريح وركبت السيارة وناديت على والد الفتاة وقلت له إيه حكاية بنتك ؟

قال ؛ « إنت أدرى يا بيه . . . خاطية وموتت نفسها » .

فإذا بالكلام يخرج من فمى عنوة ، « يا رجل بنتك سليمة وبكر ، وبطنها كبيرة علشان كان عندها مرض فى بطنها ، يعنى ماتت شهيدة ، أنت ما تعرفش حديث سيدنا النبى « إن المبطون ، يعنى اللى يموت بمرض فى بطنه ، فهو شهيد » .

يا رب . . . تمنيت أن يكون معى كاميرا فيديو لأصور وجوه الناس فى هذا الموقف .

البنت الشابة ماتت . . ماذا تنتظرون فى هذه اللحظات غير الصريخ والعويل واللطم وضرب الخدود على وفق ما هو شائع (وعلى غير سنة رسول الله) .

لكن الموقف أمامى مختلف تمامًا ، وكأن إيمانًا وسكينة قد ملآ القلوب وابتسامة ورضا ارتسمت على الوجوه .

يا رب . . . أهو حفل زفاف ؟! أم أنه مظهر لألطاف الله ، أم أنه دهاء القدر .

القدر الذى أراد أن يحتال على أهل الفتاة ، فتطايرت هذه الإشاعة وتلك الرواية حتى يسلمهم فى النهاية إلى هذا الموقف من الرضا والسكينة . بل والفرحة والاغتباط . سبحانك ربى .

القصة الثانية التى أذكرها فى صدد ألطاف الله أو دهاء القدر .

تتلخص فى أننى ؛ بعد أن أنهيت مأمورية تشريح جثة مصابة بأعيرة نارية وهممت بركوب السيارة للعودة إلى الاستراحة حيث كان الوقت قبل الغروب .

إذ بجمع من الناس يستوقفني وأخبروني بأن أخاهم قد سقط من أجد الأدوار العليا فلقى حتفه وأن النيابة قد شكت فى وفاته جنائيًا وانتدبت الطبيب الشرعى للتشريح .

قلت لهم ؛ لم يصدر تكليف رسمى بعد للقيام بهذه المأمورية ولم يصلنى إشارة من النيابة تفيد هذا .

سألتهم انتم تبع مركز إيه ؟ قالوا ؛ مركز البدارى . ذهبت أتصل بوكيل النيابة تليفونيًا لمعرفة الموضوع وجدت أن تليفون النيابة مشغول ، حاولت أكثر من مرة دون جدوى .

وعرفت أن حادثًا مروعًا وقع فى هذا المركز جعل تليفون النيابة مشغولا دائمًا .

الوقت يمر والليل يقترب وقررت أن أعود إلى الاستراحة والصباح رباح كما يقولون ، إلا أن الأهالى توسلوا إلى أن أنتظر ، ورأيت الدموع فى أعينهم ، إذ إن عودتى إلى الاستراحة معناها أن الجثة ستظل فى المشرحة حتى الصباح ولن يستطيعوا الدفن حتى إتمام مهمتى ، وكما يقولون إكرام الميت دفنه .

لكن وماذا أفعل ، فأنا حقيقة لا أستطيع أن أقوم بالتشريح إلا بعد أن تصلنى إشارة رسمية من النيابة ، وعليه فقد قمت فعلاً بركوب السيارة للانصراف .

وفجأة رأيت رجلاً مهرولاً يأتى من بعيد : انتظر . . . . انتظر . . . . ورأيت فى يده ورقة يلوح بها .

يا سبحان الله . . . هذا موضوع آخر ؛ موضوع جديد ؛

فالرجل يبدو على وجهه شبه ابتسامة لا تتفق والموقف الذى نحن فيه . وتزداد الابتسامة وضوحًا حينما يلوح بالورقة التى فى يده وكأنه تلميذ فى الشهادة

الثانوية قد جاء للأهل بخبر نجاحه ، وهذه هى شهادة النجاح ، لا يمكن أن يكون هذا الرجل المهرول من بعيد يحمل شيئًا غير هذا .

اقترب الرجل فبادرته

أنت مين ؟

قال أخوه

أخو مين ؟

أخو الجثة ! ثم استطرد

« أخذت عربية وذهبت إلى النيابة وجبت الإشارة » .

يا رب ، أى إشارة تحمل معها كل هذا التهليل وعلامات الفرح .

إشارة تشريح أخيه !

جملة مكونة من ثلاث كلمات تحمل كل معانى الألم والعُثرة والحزن لكن الله سبحانه وتعالى أبدلها رضًا ويسراً وسكينة بل وفرحًا .

فهل تلك حيلة أخرى من حيل القدر يبدل الله بها عسر البشر يسراً وسكينة . . . أم هى إحدى ألطاف الله ؟!



جثمان ملقى في الجنة

✍ . . . لا شك أن الأطفال هم زهور الحياة وزينتها . ولا شك أنهم نصف عباقرة لأنهم يرون نصف الحقيقة كلها أو كل نصف الحقيقة .

فإن كانت الحقيقة أن الحياة سراء وضراء ، لهوٌ وجد ، عطاء ومنع ، أخذ ورد، منحة ومحنة ، جمال وقبح ، قيمة ورزيلة ، خير وشر ، فإن الأطفال لا يرون منها إلا الجانب الجميل وحسب .

لو تركت طفلاً عمره عامًا أو عامين بجانبك أمام شراعة منزل - لرأيته لا يعرف عن الشراعة إلا أنها نافذة على العالم الصاخب الذى أمامه ، لا يعرف أنها قد تكون نافذة على العالم الساكن الذى لا يراه . ولو تركته دون أن تمسك به جيدًا وتحاذر لقذف نفسه من الشباك .

لو تركت طفلك الصغير فى الشارع يمشى بجانبك لرأيته لا يعرف عن الشارع إلا عالم المرح والجرى ، يبكى ويحاول أن يفك أسره من يدك القابضة عليه ، لا يعرف أن فى الشارع سيارات تجرى بسرعة ، ولو تركته لأمره لحظة لضاع وانتهى .

ربما يعيد الأطفال ببرائتهم ونقاء طويتهم قصة آدم عليه السلام يوم أن خلق فى الجنة وعاش فيها ما عاش ، ثم ابتلاه ربه فنزل إلى الأرض حيث الكذب والخديعة والضلال .

لذلك فالأطفال حساسون للغاية لأى أمر يعكر عليهم صفو حياتهم الجميلة .

وجريمتنا تجاه أطفالنا أننا نتعامل معهم دون تفهم كامل لجنتهم التى يعيشون فيها . وأبشع ما يؤذى الطفل هو أسلوب التخويف . فكثيراً ما نخوف أبناءنا بقصص عن العفاريت والجان ، وهى أمور فضلاً عن أنها تجنح بالطفل عن طريق المعقوليات المستقيم وتنحو به نحو بداية طريق الهرطقة واللامعقوليات ، فإنها كذلك تغمس فيه بذور الخوف والقلق وتفسد عليه عالمه الآمن الجميل .

وأعتقد أن الطفل فى سنى عمره الأولى لا يحتاج لشىء قدر احتياجه إلى الحب والعطاء ، كما أن أفضل أسلوب لتربية الطفل هو أسلوب القدوة والمثل .

إننا نخوف أطفالنا ، وحينما يخافون يلجأون إلى الحيلة ، وحينما يرون قدوتهم يكذبون يكتشفون أن الكذب أسهل حيلة للنجاة من العقاب .

لماذا نعاقب أبناءنا على الكذب ونشكو مر الشكوى من اعتيادهم الكذب ، وقد كان من الأسهل والأسلم أن نكون كقدوة صادقين أمامهم ومعهم .

لماذا لا نعلمهم بالسلوك والممارسة الحياتية معنى القناعة ، وأن القناعة كنز لا يفنى ؟ لماذا لا نعلمهم منذ صغرهم عن طريق السلوك والممارسة الحياتية معنى حب الله وأن الله أصل الوجود كله ؟

لماذا لا نعلمهم عن طريق القدوة والممارسة الحياتية معنى العطاء ومعنى المشاركة ومعنى القيم ؟ ورويداً رويداً بالتدريج يتفتح أمام الطفل عالم النصف الآخر من الحقيقة . أنه يعرف بالممارسة الحياتية نصف الحقيقة ويعرف بالاستنتاج تدريجيًا النصف الآخر منها .

لا يصح أن نصعق الطفل بالنصف الآخر من الحقيقة عن طريق التخويف والترهيب ، كمن يسحب طفله الصغير من غرفة مضيئة بها لعبه وأصدقاؤه إلى غرفة مظلمة موحشة . أحرى بنا أن نصحب أطفالنا فى رحلة إلى القلعة أو برج القاهرة ، ومن هناك وهم بين ضلوعنا نطلعهم من بعيد على أطياف من العالم الآخر .

وإذا كانت الجنة التى عاش فيها آدم ردحًا من الزمن ، والتى وعد الله بها بنيه المتقين . إذا كانت هذه الجنة هى دار ثواب لا دار تكليف ، ودار عطاء لا دار منع ،

ودار بقاء لا دار فناء ودار جمال لا دار قبح ، فإننى أحيانًا وليسامحنى ربى أرى جثمانًا ملقى فى الجنة .

ما أقسى على نفسى أن أباشر قضية طفل مقتول ، أو بالأحرى قضية جثمان فى جنة الأطفال .

فلقد أبلغ أحد أهالى مركز سمالوط عن العثور على جثة ابنه مقيد اليدين والقدمين وملقى فى مصرف صغير .

قمت بتشريح جثمان الطفل وتبينت عدم وجود انسكابات دموية مقابل مواضع القيد مما يجزم بأن التقييد حدث بعد الوفاة ؛

كما تبينت عدم وجود مظاهر خارجية أو علامات داخلية للغرق ، مما يكشف أن الإلقاء فى المصرف حدث أيضًا بعد الوفاة ، وأن الوفاة ليست بسبب اسفكسيًا الغرق . كما تبينت عدم وجود مظاهر هتك عرض - وهى الجريمة التى غالبًا ما يقصدها المجرم ثم يتبعها بقتل الضحية خشية افتضاح أمره .

ثم انكشف بعض فحص الجثة وتشريحها ومن خلال ما أسفرت عنه التحريات أن قاتل الطفل هو والده ، وأن مقيده هو والده ، وأن ملقى الجثمان فى المصرف هو والده .

لم يكن الوالد يقصد قتله ، بل كان يقصد تأديبه وحسب . لطمه على أذنه فمات الطفل فى الحال .

لا شك أن الأم أو إحدى قريبات الطفل كانت تهدده بوالده : « لما يحضر أبوك سيقطع من جسمك » .

ولا شك أن الطفل المسكين كان بموجب هذا التهديد كالمنتظر لعزرائيل ، حتى إذا ما جاء الوالد انخلع قلب الطفل . ولا شك أن الطفل وقف أمام أبيه باهت اللون مصفر الوجه بارد الجسم ، ولا شك أنه مع برودة جسمه كان يتصبب عرقًا . ولا شك أن الوالد كان يسب الطفل ويهدده ، ثم لطمه على وجهه فمات الطفل ، ماتت أحلام الطفولة ، ماتت إحدى جنان الله فى أرضه .

لطمه على وجهه ، ربما لا يدرى معظمنا أن الوجه وتحديداً أسفل الأذن من المواضع الحساسة فى الجسم وأن أحد الأسلاك العصبية المتصلة بالقلب تمتد من هذا الموضع . وإن الضرب أو اللطم أو اللكم عليها قد يثير هذه الأسلاك العصبية ، وإثارتها معناه سكتة للقلب الأخضر .

ما حدث نسميه بلغة الطب الشرعى صدمة باراسمبتاوية ، ومظاهره كما بينا تخويف وترهيب ، وضرب على أحد المناطق الحساسة بالجسم يتبعه إثارة للعصب الحائر ، ومظاهر فسيولوچية ملخصها اصفرار وبهاتة بالوجه ، وتصبب عرق بارد وأنيميا مخية وهبوط بالقلب ووفاة سريعة .

مات الطفل المسكين ، وخاف الوالد على نفسه ، ربما خاف من عقوبة القانون ، وربما خاف من ألسنة أهل القرية حينما يقولون قتل الأب طفله .

فما كان من الرجل إلا أن حمل الجثمان بين ذراعيه وألقى به فى المصرف .

ولا ينتهى اللغز عند هذا ، فلو كانت هذه فعلاً دوافع الرجل لما قيد الجثمان قبل إلقائه فى المصرف .

لا شك أن عداوات كانت بينه وبين عائلة أخرى ، وإلا فلماذا يقيد الطفل . لابد أن عقله فد تفتق فى أن يستغل وفاة طفله فى تلفيق تهمة بالعائلة المعادية . إنه يريد أن يقول إنهم قيدوا ابنى وهو حى وألقوه فى المصرف ليموت غرقًا .

وإن كان الطفل المسكين ذو القلب الأخضر قد مات على يد والده الجاهل فى لحظة ، إلا أنه مما لا شك فيه أنه كان يموت على يديه كل لحظة . ولا شك أن أسلوب التعنيف والتهديد للأطفال يقتلهم كل لحظة . ولا شك أن القدر أراد الخير لهذا الطفل حينما أنقذه من سجن أبيه . أراد له القدر أن يموت فى لحظة خيراً من أن يموت فى كل لحظة . أراد له القدر بعد أن حرم جنة الدنيا ونصف حقيقتها الغائب أن يحيا مع أقرانه فى جنة الخلد .

ترانا عدنا إلى ما كنا نتحدث عنه فى الفصل السابق عن دهاء القدر وألطاف الله - أم أنه كان حديثًا عن قصة لجثمان ملقى فى الجنة .

■ ● ■ ● ■

امرأة وثلاثة رجال

. . . أول ما يقع فى نفسى حينما أتلقى إشارة لفحص وتشريح جثة امرأة وأكثر من رجل ، أن أفتش عن الكحوليات والمخدرات .

إن الرجل دون بقية المخلوقات لا يستطيع إثبات فحولته فى وجود رجل مثله أو فى وجود شخص ثالث .

وأعتقد أن الانتصاب لدى الرجل عملية نفسية بحتة . حتى الخصيتين وعيوبهما وأمراضهما لا شأن لهما بعملية الانتصاب وإن أثرتا كثيراً على القدرة على الإنجاب .

وأبجديات الاتصال الجنسى ، الطمأنينة ؛ طمأنينة مع الله ، وطمأنينة مع النفس وطمأنينة مع الطرف الآخر ثم طمأنينة مع الناس !

طمأنينة مع الله والنفس والطرف الآخر . . . وهذا يتحقق بكلمة الله ورسوله وبعقد شرعى مشهر .

طمأنينة مع الناس وهذا لا يتحقق إلا إذا كان الاتصال بعيداً عن أسماع الناس وأعينهم .

وأذكر أن أحد أصدقائى الغير مقربين كان دائم الحديث عن علاقته الزوجية ، بل كان لا يخجل أن يصف أدق تفاصيل هذه العلاقة ، وكان إذا نجح فى إثبات

فحولته مع زوجته ، وقلما ينجح ، يأتى مبسوطًا فرحًا يتحدث عن جولاته وتفوقه .

وإذا فشل رأيناه مهمومًا مكسوراً ، يتحدث عن خزيانه وهزائمه . واشتكى لى أنه ذهب لكبار أطباء أمراض الذكورة وأجرى جميع الفحوصات والتحاليل ، وثبت من خلالها أنه لا يوجد مرض عضوى مانع لديه .

ولقد قلت لهذا الرجل يومًا ، إن الانتصاب عملية نفسية بحتة .

قاطعنى ، يعنى أذهب إلى دكتور نفسانى .

قلت ؛ بل خُذ عنى الآتى :

إن اللاشعور يسيطر على الموقف كله وأن قدرة اللاشعور على التحرك فى هذا الموقف تتوقف على الطمأنينة ، الطمأنينة أن أحدًا لا يراك وأن العيون لا تتلصص على عورتك وعورة زوجتك .

قاطعنى ثانيًا ، لكن أحدًا لا يرانى .

قلت ، لكنك تأتى فى الصباح لتحكى ما تم فى المساء ، لهذا فاللاشعور عندك خائف منك يشعر أنك تفضحه وتكشف أسراره ، خائف من الناس يشعر أنهم يتلصصونه ويكشفون عوراته .

نصيحتى لك يا صديقى أن تعاشر زوجتك بعيدًا عن أعين الناس وأسماعهم ، فإنك حينما تتحدث إليهم عن علاقتك الزوجية كأنك سمحت لهم أن يروا عورتك ، ويصبح اللاشعور عندك خائفا غير مطمئن ، وخوف اللاشعور هذا وعدم اطمئنانه هو الذى يصحبك مساءً مع زوجتك ليفسد عليك علاقتك بها .

وأعود إلى القضية ، جاءتنى إشارة لفحص وتشريح جثة امرأة وثلاثة رجال ، وانتقلت لأداء المأمورية .

فوجدت أن الجثث الأربع عرايا تمامًا . وكما قلت ، فإن أول ما تبادر إلى ذهنى فى مثل هذا الوضع فى سبب الوفاة هو الكحوليات أو المخدرات .

فالإنسان لا يستطيع أن يكشف عورته أمام الآخرين إلا إذا كان قد فقد إنسانيته تحت تأثير الكحوليات . قمت بأخذ عينات حشوية لتحليلها وثبت من الفحص وجود كحول إثيلى بنسبة ٦٠٪ بدمائهم وهى نسبة قاتلة .

والواقع أن الكحوليات والمخدرات تمنح إحساسًا بالنشوة وقد تعطى إحساسًا خادعًا بالقدرة الفحولية ، والإنسان غالبًا ما يطلب المزيد ويريد نشوة أكبر فيأخذ جرعة من المسكرات أكبر ، وهكذا حتى يصل إلى جرعة تسلمه إلى غيبوبة عميقة لتسلمه فى النهاية إلى موت لا نشوة بعده . تمامًا كما يرى الفراش ضوء النار أو يحس بدفئها فينبهر بها ويقترب منها ثم يريد أن يرتشف أكثر فيقترب أكثر وأكثر حتى يقع فيها ويلقى حتفه .

عن عمر رضى الله عنه قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعلت الفراش يتقاحمن فيها ، فأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقبلون وتتقاحمون فيها » .



الراقصة

. . . منذ لحظات كان الفتى مزهواً بشبابه مفتونًا بقوته ، يقف ويثب ، يضرب ويكسر . وفى لحظة فقد حياته وقُتل ، أو فقد حريته وخسر دينه ودنياه فقَتل .

ومنذ لحظات كانت الراقصة مغرمة بجسمها الفاتن تكشف عن نهديها الكرويين وخصرها الممشوق ، تتمايل فتتمايل معها أعناق الرجال وتتراقص فتتراقص معها قلوبهم . . . وتتحرك الغرائز ويتحول الإنسان إلى حيوان .

أحبها بجنون . . . لكنها هجرته وقربت آخر وفضلته عليه . فطعنها العاشق المهجور طعنات نافذة فلقيت حتفها ، ولم تكتشف الجريمة إلا بعد أكثر من أسبوع .

انتقلت لفحص وتشريح الجثة . لم تكن مذكرة النيابة قد أرسلت إلى بعد ، ولم أكن أعرف شيئًا عن قصتها .

أول معلومة عرفتها عنها هى هذه الرائحة الكريهة للغاية التى وصلت إلى أنفى على بعد أمتار . . . رسالة من بعيد . . . ابعد . . . ابعد ، . . . لكن أنى لى أن أبعد ، فهذه مهنتى وهذا واجبى . . . اقتربت .

وكانت ثانى رسالة ؛ ديدان يبلغ طول كل واحدة ٢ سم تتواثب وتقفز إلى حوالى متر علواً وكأنها تتراقص . . . أو كأنها تقول لى : ابعد . . . ابعد .

لكن وأنى لى أن أبعد وهذه مهمتى ، وهذا واجبى . واقتربت . . . فإذا

بالوجه من شدة التعفن قد اسود وازرق والجسمان قد انتفخ وبراز قد قذف من فتحة الشرج .

يا رب . . . . سبحانك .

أهذه هى الراقصة التى كانت يتهافت عليها الرجال ؟!

ألا بعداً لكم ! . . .

ألا فاقتربوا

ألا سحقًا لكم !

أوَلا تعرفونها الآن ؟!

وأعود بذاكرتى إلى ما قرأته فى الأثر عن ابن عباس رضى عنه قال : « يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوهة خلقتها ، فتشرف على الخلائق فيقال : أتعرفون هذه .

فيقولون ؛ نعوذ بالله من معرفة هذه ؟

فينادى ؛ هذه هى الدنيا التى تشاجرتم عليها ، بها تخاصمتم وتباغضتم وتقاتلتم . . . ثم يقذف بها فى جهنم فتنادى ؛

يا رب أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول تعالى ألحقوا بها أتباعها وأشياعها » .

يا رب . . . . سبحانك .

أهذا الجثمان المنفرة رائحته المشوهة خلقته ، كان منذ قريب يتقاتل عليه الرجال ويتبارزون ؟!

وأعود بذاكرتى ثانية إلى ما قرأته فى الأثر عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى رواية مسلم أن الرسول صلّى الله عليه وسلم قال « إن الدنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فاتقوا الدنيا واتقوا فتنة النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » .

اللهم هؤلاء عبيدك بين يديك إن شئت عاقبت وإن شئت غفرت .

■ ● ■ ● ■

ديناميكية عادة الثأر وعلاقته بعارض الإرهاب

. . . لا شك أنه قد وضح لى كطبيب شرعى عملت فى معظم محافظات مصر اختلافًا فى نوع الجريمة وأدواتها من إقليم إلى آخر . تمامًا كما نرصد تمايزاً نسبيًا فى شخصية الأفراد وسلوكهم فى الأقاليم المختلفة .

لكن هذا التمايز وذاك الاختلاف لا يصح أن ينسينا أننا نعيش فى دولة واحدة تتجانس فيها الشخصيات والعادات والسلوكيات إلى حد كبير .

فمصر وربما دونًا عن معظم بلدان العالم تتميز بوجود هيكل خرسانى يثبت بنيانها . هيكل خرسانى أو هيكل عظمى نتشابه فيه جميعًا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب فيوحد بين الشخصيات ويقرب بين العادات إلى حد كبير مهما تباينت المواقع واختلفت الأماكن .

فالنيل الخالد الذى يشق أرض مصر يضع أول لبنات هذا الهيكل فيفيض على الشخصية المصرية ويسمها بسماته ، يفيض عليها حبًا وطيبة وعطاءً وشماخة . تمامًا كما يمس جلدها فينضح عليه باللون القمحى لون طينه وطميه .

وثانى لبنات هذا الهيكل هو الحضارة المصرية القديمة ، والحضارة تعنى تاريخًا وماضيًا وقيمًا . قيمًا من خلفنا ننظر إليها فنخاف عليها وتحول بيننا وبين الخطيئة والرذيلة والدنس .

وثالث لبنات هذا الهيكل وأهمها هو الديانة ؛

الديانة الإسلامية السمحاء الراسخة فى وجدان هذا الشعب المحتوية لجميع فئاته وجنسياته وطبقاته .

الديانة التى ترفق بأهل الذمة وتجعل من إيذائهم إذاءً لسيدنا رسول الله ﷺ نفسه (من آذى ذميًا فقد آذانى) . وكانت الوصية بأهل الذمة هى آخر وصايا رسول الله ﷺ قبيل وفاته .

الديانة الإسلامية التى تحن على الضعيف وتعطف على الفقير والأرمل والمسكين إلى الدرجة التى بين فيها رسولنا الكريم ان رعاية المسكين والأرمل كالجهاد (فى سبيل الله) .

الديانة الإسلامية التى تنشئ علاقة طاهرة بين الرجل والمرأة قائمة على كلمة الله وتجعل عطاء المرأة فى بيتها عبادة ، وعطاء الرجل لزوجته وأولاده جهاداً .

الديانة الإسلامية التى تحض على طاعة الوالدين وتجعل الجنة تجرى تحت أقدام الأمهات .

الديانة الإسلامية التى تحض على احترام حقوق الجار إلى الدرجة التى ما يزال جبريل عليه السلام يوصى النبى الكريم خيراً بالجار حتى ظن أنه سيورثه .

الديانة الإسلامية التى تحض على صلة الرحم إلى الدرجة التى يشتق فيها الرحم من اسم الله الرحمن الرحيم .

الديانة الإسلامية التى تدعو إلى نبذ العنف والعدوان وتدعو إلى التعاون على البر والتقوى .

الديانة الإسلامية التى تحفظ حقوق الشعوب وتجعل السلطة تكليفًا قبل أن تكون تكريمًا ، وتقيمها على الشورى والديمقراطية إلى الدرجة التى يقرر فيها أبو بكر الصديق فى خطبته أمام أول برلمان عرفه التاريخ « إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى » .

الديانة الإسلامية التى ترفع قيمة العمل والعلم إلى منزلة العبادة ، وتجعل من طلب العلم فريضة ، وترفع العلماء إلى أعلى عليين ، فيقول سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم « أنزلوا الناس منازلهم » .

تلك لبنات الهيكل العظمى للشخصية المصرية ، ثم يبقى بعد هذا النسيج الرخوى . نتمايز فيه من إقليم لآخر ومن فرد لآخر .

وإنه لمن الخطأ أن نتوهم أن صعيد مصر بما فيه من تزايد نسبى لجرائم القتل وانتشار لجريمة الثأر وربما الإرهاب فى فترة من فترات تاريخيه ، يتسم بالعنف أو أن العدوان خصيصة من خصوصياته . لأننا إذا كنا قد سلمنا بأن هناك هيكلاً عظميًا خرسانيًا قد شكل بنيان الشخصية المصرية ، وأن التمايزات النسبية تقع فى البعد النسيجى الرخوى . فلا يصح بعد هذا أن نجعل من هذا التمايز النسيجى ما يهدم الأبعاد الثابتة فى الإنسان المصرى .

إن الهيكل العظمى يؤسس إنسانًا مصريًا مسالمًا ينبذ العنف والإرهاب ، فكيف بعد هذا يصح لنا أن نصف التشكيل الرخوى للبنية الصعيدية بالعنف أو الإرهاب .

بل قد يكون العكس هو الصحيح . فصعيد مصر يشق النيل أرضه أكثر من أى إقليم آخر ، والحضارة الفرعونية والمصرية القديمة ضاربة فى أعماقه أكثر من أى مكان آخر ، وربما تكون الديانة كذلك راسخة فى وجدان الصعيد المصرى أكثر من أى إقليم آخر .

هذا من الناحية التحليلية الموضوعية البحتة ، أما من الناحية الاستقرائية الواقعية فإننى وقد عملت فى كل صعيد مصر لم أرَ فيه إلا الشخصية الطيبة المسالمة ، الصغير فيه يحترم الكبير ويوقره ، والكبير فيه يرحم الصغير ويعطف عليه .

بل أقسم أننى دخلت بيوت إخوة مسيحيين جمعتنى بهم صداقة وتسامرت وتبادلت معهم الزيارات وأكلت من طعامهم . وأذكر أننى وكنت فى زيارة لأخ

مسيحى فى المنيا وجلسنا نتسامر وحينما أذن للصلاة قال لى اتفضل للوضوء وهذه سجادة الصلاة ! أقول ليس كل هذا مع ما يتفق وأن تكون شخصية الصعيد عدوانية بل العكس هو الصحيح .

إنما أرى أن عادة الثأر وعارض الإرهاب مرجعهما فى التحليل الدقيق والقراءة السليمة هو النزعة إلى القديم .

فالتطور الطبيعى للأمور يقضى بأن نفترض أن الإنسان بدأ بلا قانون جماعى ينظم حركته . . . ثم تتطور الأمور وتتعقد العلاقات وتنشأ العائلة والقبيلة وينشأ معهما قانون جماعى قبلى تعطى فيه الزعامة لكبير العائلة أو شيخ القبيلة .

ثم تتشابك العلاقات وينشأ القانون الجنائى والمدنى والدولى وغيره من القوانين التى تنظم حركة المجتمع وعلاقات الأفراد ، وتنفصل السلطات وينال الشعب والصحافة والإعلام أدواراً رقابية . . .

وأعتقد أنه وإن كانت كل مجتمعات وأقاليم مصر قد بدت نفس البداية حتى تدرجت إلى ما عليه الآن من نضبج سياسى وتحديث اجتماعى فإن صعيد مصر ما يزال مشدوها أمام القديم مشدوداً إلى القانون القبلى .

وإن كنا نقر أن القانون القبلى قانون له نظمه وطقوسه كما له قيمه وتقاليده إلا أن ما يعاب عليه هو الانتماء للعائلة كند للعائلة الأخرى ، حينئذ يتفتت المجتمع وتضعف قواه .

وبحكم طبيعة الصعيد الجغرافية كشريط ضيق قائم أساسًا على الزراعة يمتد فيه الطول ويضيق العرض ، وتتكاثر العائلة فيه حول مساحتهم الزراعية الضيقة التى هى كل رأسمالهم ، وعليها تقوم حياتهم يكدسون الأسلحة صونًا لها وردعًا للآخرين من الجور عليها .

هذه الطبيعة الجغرافية لم تكن هى المسئولة عن خلق النزعة القبلية فى الصعيد بقدر ما كانت هى المسئولة عن استمرارية تيارها وصمودها أمام موجات التغير والتحديث .

فالنزعة القبلية كما أشرنا أحد حلقات تطور أى مجتمع أو إقليم ، تواجدت فى الصعيد كما تواجدت فى بقية الأقاليم فى حلقة من حلقات تطورها ، إلا أن الصعيد ، هذا الوادى الضيق ؛ الفقير أولاً ، البعيد عن العمران ثانيًا ، والمتباعد عن المتعمرنين بحكم طبيعته الجبلية الساخنة ثالثًا ، كل هذا أفاض على الشخوص والوجدانات الصعيدية فيوضات جبلية صخرية ساخنة ، لتتسق فى النهاية هذه الشخصيات وتلك الوجدانات مع البيئة الجغرافية المتسمة بالطبيعة الجبلية والجو الساخن .

بُعد السكان عن مصدر النبضات التحديثية - أقصد عن العاصمة ، ونفور المتعمرنين من جو الصعيد الساخن واعتماد السكان فى معاشهم على مساحة ضيقة من الأرض الزراعية حتى لتتكدس العائلة على قطعة الأرض الصغيرة . كل هذا أصّل فى هذا الشعب عرقه الصعيدى وعمق الإحساس بالالتزام بقانون العائلة . قانون العائلة كند لقانون الدولة ، والعائلة كند للعائلات الأخرى .

ثم تتهادى هذه العوامل لتتقابل مع عوامل جغرافية أخرى لتفسر لنا صلادة هذه النزعة وتحديها لموجات التحديث والتجديد .

الطبيعة الجبلية التى أفاضت على الشخوص صلابة وجمودًا وتخشنًا . بل وضروبًا فى عمق الأرض كالجبال الراسيات .

الجبال الراسيات التى ربما يعصفها الجو بالرياح والأعاصير فلا تفرط لها إلا ببضع ذرات من رمالها وحصاها .

الجبال الراسيات التى ربما ترشقها السماء بوابل من الأمطار والسيول لكنها تصمد ولا تفرط لها إلا ببعض حبات التراب تُحمل مع النيل إلى العاصمة فتغير فيها ولا تتغير بها (ألا ترى تغير لون النيل فى العاصمة بعد هبوط السيول فى الصعيد !) .

طبيعية جبلية أفاضت على الشخوص صلابة وصموداً وجموداً ، وجو ساخن يلعب بالرؤوس كما الدوامات .

جو ساخن يعطى للطين تماسكًا كالصلصال الذى خلق منه الإنسان وكأنه يؤكد فى الصعيد أصالة وعمق جذوره .

جو ساخن ينضج الحبوب والثمار لتحمل مع التجار إلى العاصمة وكأنه يؤكد كلمة جبال الصعيد « نغير ولا نتغير » « نؤثر ولا نتأثر » ! .

طبيعية جبلية وجو ساخن يؤكدان كل معانى الأصالة والشموخ والإباء .

ولكن كما يجرى اللبن فى كرش البهائم بين فرث ودم فلا يتعكر لونه ولا تتغير رائحته ليخرج فى النهاية لبنًا صافيًا سائغًا للشاربين ، كما لا يفصل بين مجرى اللبن الناصع المستساغ وبين مجرى الدم الأحمر والقاذورات الكريهة إلا شعيرات رقيقة دقيقة ، كذلك عروق الأصالة لا يفصلها عن عروق الدم الأحمر والعصبية البغيضة إلا شعيرات دقيقة .

نشأت النزعة القبلية كأحد أطوار التطور الاجتماعى فى الصعيد . بل وفى المجتمعات كلها ، وهى نزعة ربما كانت تناسب عصرها .

العائلة تعقد اجتماعها ، وتصدر حكمها ، وتنيب من يتولى عنها سلطة التنفيذ والقصاص . ولم يك هذا فى عرف العائلة أو القبيلة منكراً . كما أنه لم يك فى عرف المنطق أو الدين منكراً كذلك . لأن العرف والمنطق والدين ، كلٌ يحتم ضرورة العقاب المناسب وكل يحتم أن يتولى أولوا الأمر مهمة تنفيذ العقوبة .

كانت هذه الأمور تمضى إذن وفق العرف والمنطق والدين .

وتتعقد الحياة وتتشابك أفرع الأشجار ويتطور المجتمع ، حينئذ يصير للمجتمع ولاة جدد وسلطات قضائية محايدة ، وسلطات تنفيذية مختصة .
وحينئذ ، وحينئذ فقط يعاب على العائلة أن تضع نفسها ندًا للمجتمع وسلطاته .

ويأبى المجتمع الجديد إلا أن يتحمل تبعات مسئولياته .

ويأبى الإقليم الصعيدى إلا أن يتحدى موجات التحديث في المجتمع . وكلاهما إباء !

وبين الإباءين تتوالى الحلقات وتكثر النادبات .

قتيل . . . أمر خطير لكنه لا ينفى عن الإنسانية إنسانيتها .

فقديمًا قتل قابيل هابيل ؛ ثم تتوالي الحلقات ويرتفع صوت نعيق البوم . السلطات تقبض على القاتل وتحاكمه وفق القانون الجنائى البازغ ، وتتوالى الحلقات ويزداد عواء الذئاب .

والعائلة لا ترى فى الحكم القضائى قصاصًا ولا ما يشفى الصدور . . . بل وتصيح : القاتل هناك خلف القضبان .

وتتوالى الحلقات وتتأزم الأمور .

القاتل خلف القضبان . . . يتلقى عقابه جزاءً وفاقًا . . . هذا فى رأى السلطات .

القاتل خلف القضبان . . . يتلقى حماية وحصانة . . . هكذا تهمس العائلة .

وتتعالى الهمسات . . . القاتل خلف القضبان فى حماية . . . ، السلطات لم تقتص لنا . . . ، لابد من القصاص .

هل ننتظر خمسة وعشرين عامًا أو حتى عشرة أعوام حتى يخرج القاتل من خلف القضبان ؟

وتتوالى الحلقات وتلعب سخونة الجو بالرؤوس وتلفها كالدوامات .

لابد من القصاص .

القصاص من مَن ؟ . . . إن القاتل خلف القضبان .

القصاص من العائلة . فلنقتل أحد شباب العائلة أو وجيهها ، لتزداد الحرقة . . . حرقة العائلة التى قتلت منا ، وحرقة السلطات التى أخفت القاتل عنا ! ! ! ويزداد الجو سخونة !

قتيل . . . قتلنا أحد شباب العائلة الأخرى .

وتتوالى الحلقات .

القاتل الجديد لا يختبىء ولا يهرب . . . لقد أخذنا بالقصاص . . . وتلك مفخرة وليست مذمة . وربما يسلم نفسه للسلطات . . . ويعلن أنا الآخذ بالقصاص . . . ليتوارى خلف القضبان .

إلى هنا فهل تقف الحلقات

قاتل هنا وقاتل هناك

قتيل هنا وقتيل هناك

سجين هنا وسجين هناك

هل تقف الحلقات

لا . . . لا تقف الحلقات

إن شاب العائلة الأخرى القتيل لم يَقتل ، فلمَ يُقتل ؟ فلنأخذ بالثأر له . . . وتتوالى الحلقات وتتأزم الأمور وتكثر الجيف ويرتفع عواء الذئاب ونعيق البوم . . . وتتخرب الديار .

وهنا نكتشف الشعرة ؛

ربما يكون القانون الجنائي قد فتح قلوب كل أقاليم مصر إلا الصعيد. فربما يكون غزاها ، وفرق كبير بين المعنيين .

غزاها يوم أن لم يفهم طبيعية هذا الإقليم العنيد .

وغزاها يوم أن لم يدرك أصالة هذا الإقليم واعتداده بنفسه ، وغزاها يوم أن لم يتعرف على جو هذا الإقليم الساخن وجغرافيته الجبلية القفر .

وأزعم أن نضجًا وجدانيًا بدا فى أفق الصعيد ، وتحركا فى محور الحلقات ، وبدا بسؤال .

إذا كان الثائر لعائلته سيُسجن ، ثم يُقتل أحد أفراد عائلته ، فيصير فى العائلة قتيل وسجين لكل جريمة قتل واحدة ، لماذا يسلم نفسه إذن للسلطات . . . ، فليهرب .

العائلة الثانية تبحث وتفتش عنه ، لأنه موجود خارج القضبان .

ويتأخر القصاص إلى حين . وتتراخى جرائم الثأر . ثم تمضى إلى حيث تتوقف .

تتراخى ، من حيث إن العائلة لن تقتل اليوم أو غدًا أحد أفراد العائلة الأخرى . . . بل ستتمهل حتى تقبض على المجرم ولو بعد حين .

وتمضى إلى حيث تتوقف ، حيث سيُقتل القاتل عينه وليس غيره ، وبهذا تقف الحلقات ؛

تقف كدائرة جهنمية يسلم آخرها إلى أولها .

تقف حيث تنتهى الأمور إلى :

قتيل هنا وقتيل هناك
قاتل هنا وقاتل هناك

ويتضح أن هناك حركتين

حركة كانت ، وتمضى فى حلقات جهنمية لا تنتهى ، مفرادتها ؛

قاتل هنا وقاتل هناك
قتيل هنا وقتيل هناك
سجين هنا وسجين هناك

وحركة تكون ، وتمضى حيث تتوقف ، مفرداتها :

قتيل هنا وقتيل هناك
قاتل هنا وقاتل هناك

وهنا يجب أن يتوقف المجتمع .

يتوقف المجتمع ليحمد للصعيد حركته الجديدة .

ويتوقف المجتمع ليلتقى مع الصعيد فى حركته الجديدة .

كيف يلتقى المجتمع مع حركة الصعيد الجديدة ؟

لابد أولاً أن تتضح خطورة جريمة الثأر .

ولابد ثانيًا أن تتضح طبيعية عادة الثأر .

تتضح خطورة جريمة الثأر حينما ينكشف لنا أنها لا تعنى فقط قتيل هنا وقتيل هناك أو قاتل هنا وقاتل هناك . بل هى تعنى فى النهاية أو تفضى فى النهاية إلى شيوع الاستخفاف بعملية القتل .

إن حاجزًا كبيرًا . بل سدًا منيعًا فى النفس البشرية يفترض أن يقف بينها ويحول دون سفك الدماء .

والثأر عادة ، حينئذ يصير سفك الدماء عادة ، ويستهان بالروح البشرية ليكون إزهاقها عادة . والمترصدون على الأبواب بل على الصدور جاثمون . . . فلم لا يشتعل فتيل الإرهاب الأسود وقد تلوثت الأرض سابقًا بالثأر الأحمر .

وهكذا يدل أن تمتد يد المجتمع الحانية لتمتص موجات العادة السيئة ، تمتد الأيدى الخبيثة الماكرة لتشعل النار وتزيد سفك دماء الأبرياء . وتعود الكرة . . وتكثر الجيف . . ويسود الظلام . . وينعق البوم . . وتعوى الذئاب فى الأرض الخربة .

لابد أن يتضح مدى خطورة جريمة الثأر .

ولابد أن يتضح ثانيًا طبيعية عادة الثأر .

يتضح طبيعتها حينما يتيقن فى نفوسنا أن النيل الذى يشق أرض الصعيد كما لا يشق أرضًا غيرها ، وأن الحضارة الضاربة فى تاريخه كما لم تضرب فى تاريخ

أى مكان آخر على وجه المعمورة ، وأن الدين الساكن فى أنفس أهله كما لم يسكن أنفسًا آخرى . . . لا يمكن أن يطبع الصعيد بطابع العنف أو العدوانية .

ليس عنفًا هو أو عدوانية ، إنما هو نزعة قبلية ضارية فى جذوره ، وطبيعة جغرافية شكلت نسيجه الرخوى ، وتغيرات سياسية واجتماعية وتشريعية تعاملت معه عن غير فهم أو وعى بطبيعته .

من هنا على المجتمع أن يلتقى مع الضعيد .

يلتقى معه عند كلمة سواء أو جزها فى كلمَتين :

الأولى - إقامة ما يشبه المحاكم العسكرية فى الصعيد ليكون مهمتها مناظرة قضايا الثأر ، على أن يتسم عملها بسرعة البت ومتابعة تنفيذ الأحكام ، أحكام مغلظة تستأصل شأفة هذه العادة الجهنمية ، وتلتقى مع حركة الصعيد الجديدة . وهذه أول كلمة .

والثانية - أن يستمر ويتعاظم الاهتمام بالصعيد علي كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والتنويرية .

والخلاصة : إن ثوابت على أرض مصر تشكل هيكل الإنسان العظمى وتنفى عنه ثمة أى عنف أو عدوانية .

وأن عوامل جغرافية تشكل فى الصعيد نسيجه الرخوى وتعظم فيه نزعته العائلية ، وربما إباءه وعناده كخصوصية ينفرد بها عن بقية أقاليم مصر ، وأن المجتمع قد أخطأ حينما تعامل مع الصعيد دون أن يعى ويدرس خصوصيته وطبيعته .

وأن الصعيد يخطو إلى الأمام وعلى المجتمع أن يتقابل معه .



چين في الجنوب

✍ . . . على أننا ونحن نبحث فى عادة الثأر قد بينا وجود عوامل بيو جغرافية ضاربة فى أعماق الصعيد تعمل فيه عمل المورثات أو الچينات ، قمنا عن طريق التحليل الموضعى بفصله وعزله وبيان خصائصه لنكتشف أثره وتأثيره والعلاقة السببية بينه وبين هذه العادة البغيضة .

على أن الچينات الجغرافية كثيرة ، وما عزلناه منها ليس هو آخرها ، وفى هذا الفصل يمتد بنا الحديث مع الچينات البيوجغرافية لنرى علاقة سببية بينها وبين عادات سيئة أخرى فى مناطق أوسع ونطاقات أعرض .

وإذا نظرنا إلى خريطة العالم ؛ العالم كجغرافيا وتاريخ وسياسة واقتصاد واجتماع وعلوم ومعارف وتكنولوچيا سنجد أول ما نجد خطًا عرضيًا واضحًا للناظرين .

هذا الخط يفصل بين موضعين ؛ هما موضع الشمال وموضع الجنوب ، وبين نوعين من البشر ، هما السادة والعبيد ، وبين وضعين ؛ هما وضع التقدم ووضع التأخر .

وعلى الجملة ، سنجد شمالاً يتمتع غالبًا بكل مظاهر التطور والمعرفة ، كما يتمتع بالسيطرة والسيادة ، وجنوب يئن غالبًا تحت نير الجهل والتخلف والاستبداد .

وعلى طول الخط ستجد علاقة ترابطية بين ما يقع تحت خط الاستواء وبين الجهل والتخلف ، كما ستجدها بين ما يقع فوق خط الاستواء وبين العلم والتقدم .

وإذا ما تجولنا فى ما تحت خط الاستواء سترى أول ما ترى تكدسًا لأشعة الشمس وسخونة فى درجة حرارة الجو ، حتى لتكاد ترى هذا التكدس وتلك السخونة هما الملازمان اللذان لا يغيبان عنك فى تلك الجولة الساخنة .

وإذا كانت الحرارة طاقة يقول عنها الفيزيقيون إنها حركة اصطدامية للجزئيات . وإذا كانت السخونة عامل توتر يقول عنها الفسيولوچيون إنها تزيد من إفراز هرمونات الأدرينالين فتثير فى الكائن الحى معانى البهيمية .

وإذا كان الرسول الكريم يعرفنا أن الغضب من الشيطان ، والشيطان كائن نارى ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (ص - الآية ٧٦) .

كما يرشدنا صلَّى الله عليه وسلَّم إلى كيفية التعامل مع حالات الغضب فيقول « إذا غضب أحدكم فليتوضأ » .

فالماء فى التوجيه النبوى يطفىء الغضب تمامًا كما يطفىء الماء النار ، فيمضى الغضب والنار حينئذ فى نسق واحد .

إذا كان كل هذا ، لتأكد لنا فى النهاية أن السخونة تحرك فى الإنسان أسوء ما فيه .

السخونة تهبط بالإنسان إلى درك المادية الهوجاء كما يقول الفيزيقيون .

السخونة تحرك فى الإنسان البهيمية النكداء كما يقول الفسيولوچيون .

السخونة تدفع بالإنسان إلى حالة من الغضب شعواء كما يقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . حينئذ ، يغيب الوعى ويختل الفكر وتشل الإرادة ولو للحظات ؛

يهشم فيها الإنسان رأس الإنسان بحجر ،

أو يكسر عظمه بعصى ،

أو يمزق قلبه بسكين ،

أو يفرتك أحشاءه ببندقية ،

أو يثقب جوفه بطبنجة ،

وتسيل الدماء

ثم تمتد أشعة الشمس إلى حيث ما تمتد ؛

تمتد ليس فقط لتفجر الإنسان فى لحظات .

تمتد ليس فقط لتخرج الإنسان عن إطار إلفه المعهود حيث تفرز الجريمة .

وإنما كذلك - وهذا هو الأخطر - تمتد لتفسد على الإنسان إطاره العام ، لتفرز زملة من « قيم الفراغ السلبية » .

الحرارة كمية غير موجهة تحدث حركات تصادمية بجزئيات المادة فتعطل فيها القدرة على التبلور .

والتبلور ظاهرة فيزيقية بها تترتب الجزيئات ترتيبات خاصة دقيقة ، وحوار يعقد بين جزئياتها ، مَن يمثل الضلع فيها ومَن يمثل الطرف ، مَن يشغل المركز فيها ومَن يشغل المحيط . وهى عملية تحتاج إلى الهدوء والسكينة ، جو شاعرى يتناسب مع شاعرية نسقها . والحرارة تفسد هذا السكون بحكم كونها حركة اصطدامية تعطل عملية التبلور .

السخونة فى الإنسان تمضى مع نفس نسق السخونة فى المادة ؛ تعطل فيه الفكر الناضج وتلهب الوجدان وتفرز إنسانًا ذا إشكاليات ؛

وإذا كان الإبداع إشكالاً ، إشكالاً راقيًا مع المادة ومع النفس ، إشكالاً يختلقه الإنسان أو يبحث عنه فينمو به المجتمع وينمو معه المجتمع ، فإن إشكالات عالم السخونة شىء آخر تمامًا . إشكالاته زملة من القيم السلبية التى يصح أن نطلق عليها أخلاقيات الفراغ ؛ فراغ العقول وعجزها عن التركيز وعن القدرة على بلورة الأفكار وشغل أوقات الفراغ .

فى هذا المجتمع الساخن الملتهب وجدانيًا المتعطلة فيه عملية بلورة الأفكار والمتعطنة فيه شبكة العلاقات ، تسود أخلاقيات الفراغ ؛ فترتفع فيه النميمة والغيبة ، والقيل والقال والشائعات والسلبيات والدجل والخرافات .

النميمة والغيبة ، كلون من ألوان الإشكالات مع الأهل والأصدقاء والجيران . والشائعات والسلبية ، كلون من ألوان الإشكالات مع المجتمع .

والدجل والخرافات - كلون من ألوان الإشكالات مع العلم والمعرفة .

وهكذا تنتشر القمامة فى البيوتات وعلى العتبات وعليها يرتع الذباب والحشرات .

فى البلدان الباردة تأخذ جزئيات الفكر فرصتها لتتبلور ؛ الكل ينتظم والكل يأخذ موضعه . فى دول المؤسسات حوار مستمر بين من يمثل الضلع فيها ومن يمثل الطرف ، بين من يشغل المركز فيها ومن يشغل المحيط .

أجهزة الدولة والجمعيات الغير الحكومية تتحرك لتستطلع أراء الشعب قبل أن تصدر القرارات . الدولة تحكم والشعب يراقب والكل ينتظم .

حتى الجريمة هناك منظمة ، وهى وإن كانت تعكس بشاعة على عمومها إلا أنها تعكس هناك أعصابًا هادئة وعقولاً تفكر وتخطط ، فتجد من يدبر لسرقة بنك أو يدبر لتدمير مؤسسة .

والجريمة فى الجنوب تختلف ، فتعكس فى النهاية تأثرها بالسخونة وارتباطها بالإنفجارية وانفلات الأعصاب . وغالبًا ما نسمع هذه العبارات على ألسنة القتلة فى الأقاليم الساخنة ؛ أعصابى انفلتت ، نرفزنى فقتلته ، جرى الدم فى عروقى فطعنته ، شتمنى فضربته .

وقد تيقنت من خلال عملى كطبيب شرعى أن جرائم القتل يزداد معدلها فى الصيف عن الشتاء ، وفى أوقات الحر عن أوقات البرد . ورأيت معظم جرائم القتل - باستثناء عادة الثأر طبعًا - تقع بسبب خلافات بسيطة تتحول إلى

مشاجرات عنيفة ، فمنهم من يقتل لخلاف مع صديقه على عشرة جنيهات ، ومنهم من يقتل لأن جاره ألقى بالقمامة أمام عتبة داره ، ومنهم من يقتل زوجته لأنها تأخرت عليه فى إعداد الطعام ، بل ورأيت أبًا يلقى بطفله من النافذة . ليتخلص من بكائه !

ثم نمضى مع السخونة حيث تمضى لنجد فى الجنوب أعصابًا متوترة وأنفسًا مستفزة ، الكل مشحون ، والكل يحتك بالكل ، وتكثر الخلافات والمشاحنات والصراعات وتنعدم البلورات المنظمة وتتوالى الموجات الساخنة .

وتتكدس القمامة فى الأزقة وبين الطرقات وتكثر الأمراض والعلات .

إن الحوار المفترض أن يسرى بين الجيران ، والتعاون المفترض أن يتحقق بين دول الجوار يستبدل فى الجنوب بحالة أخرى ، حالة تبدأ بالتوجس والتخوف أو كما يقال بلغة الإعلاميين حالة هدوء مشوب بالحذر والترقب ، ثم فجأة تندلع الخلافات وتتحول إلى مشاحنات واحتكاكات . ثم إلى تشاجرات وقطيعة ثم إلى حملات إعلامية لتبادل الشتائم والاتهامات .

وتتوالى الموجات الساخنة .

وترتفع تلال القاذورات وتصير المجتمعات الساخنة مقلب زبالة كبير . حينئذ فَلِمَ لا . . . لِمَ لا تلقى المجتمعات الباردة بمخلفاتها فى شوارعنا وميادينا . . . وتزداد تلال القمامة . . . وتتوالى الموجات الساخنة .

والخلاصة أن السخونة فى الجنوب تبدأ حملتها على الإنسان نفسه ، على الإنسان كفكر وإرادة ووجدان . . . ثم تتوالى الموجات فتأخذ الجريمة فيها طابعًا انفجاريًا انفلاتيًا وترتبط بزملة من العيوب والقيم الاجتماعية والسياسية الفاسدة، تتفتت بها أواصر الجيرة والرحم على مستوى الأفراد ومستوى المجتمعات . . . لتتحول فى النهاية إلى مقلب زبالة كبير يغرى الدولة القوية بالنزوع نحو استغلالنا والسيطرة على مقدرات أمورنا .

على أنه إذا كانت السخونة تفسد فينا حالة الهدوء والطمأنينة التى تحتاجها عملية التبلور الفكرى - أى الإبداع .

وإذا كانت عملية البلورة الفيزيقية هى عملية اصطناعية بسيطة تحتاج إلى السكون والبرودة ، فإن عمليات البلورة الطبيعية الأكثر تعقيداً والأثمن قيمة تتكون هناك فى أعماق الأرض حيث الضغط العالى ودرجة الحرارة الشديدة الالتهاب .

إن المعادن النفيسة لا يصنعها الإنسان ، إنما تخفيها الطبيعة هناك فى الأعماق حيث السخونة الملتهبة . . . فقط تمنحها لمن يعرف قيمتها ويبذل الجهد فى البحث عنها .

وأحسب أن الإسلام هو المنحة الربانية التى أخفاها الله فى ضمير الجنوب الساخن .

ويوم أن يبحث الجنوب عنها .

يوم أن يضع يده على تعاليمها .

يوم أن يفض أفراده إشكالاتهم من منطلق إسلامى .

إشكالاتهم مع النفس .

إشكالاتهم مع الأهل والأصدقاء والجيران .

إشكالاتهم مع المجتمع .

إشكالاتهم مع العلم والمعرفة .

يوم أن يفض الإنسان إشكالاته مع أخيه الإنسان ، مع أهله وجيرانه وذوى رحمه من وحى التوجيه النبوى الكريم .

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته » .

« ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة » .

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه وماله ودمه » .

« لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانًا » .

« حق المسلم على المسلم ست ، إذا لقيك سلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه » .

يوم أن يفض الإنسان إشكالاته مع المجتمع أو يوم يفض المجتمع ومؤسساته الحاكمة إشكالاته مع الإنسان كما فضها رفيق رسول الله يوم أن تولى الخلافة « أيها الناس إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى ، الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه » .

يوم أن يفض الإنسان إشكالاته مع العلوم والمعارف ويرفض الدجل والخرافات « من أتى عرافًا أو كاهنًا فليتبوأ مقعده من النار » كما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

من أتى عرافًا أو كاهنًا ، رمز لكل ما هو مغلوط وكل ما هو عكس المنطق وضده .

من أتى عرافًا أو كاهنًا

رمز للغوغائية

رمز للديماجوجية

رمز للسفسطة

رمـــز للتنـــطـع

رمـــز للظـــلام

رمز للمنطق المغلوط

رمز لكل أيديولوچية تصطدم بالعقل وحرية التفكير

رمز للديكتاتورية التى تئد الرأى وتغلق باب الحوار

من أتى شيئًا من هذه ، من آتى الخرافة ووضعها ندًا للفكر فليتبوأ مقعده من النار .

إن الدين لا يغلق أبواب التفكير كما يظن المتنطعون . .

إن الدين لا يحجر على الرأى كما يفعل الديكتاتوريون .

الدين يجعل العلم فريضة وشعيرة وعبادة . أليس الرسول الكريم هو القائل طلب العلم فريضة . أليس هو القائل اطلبوا العلم ولو فى الصين .

أليس هو القائل الحكمة ضالة المؤمن فأينما وجدها فهو أولى بها .

والدين يرفع العلماء إلى أعلى عليين ويجعل منهم مصابيع يهتدى بها « العلماء ورثة الأنبياء » . « أنزلوا الناس منازلهم » .

يوم أن يفض الإنسان إشكالاته مع أخيه الإنسان ، مع أهله وجيرانه وذوى رحمه من وحى التوجيه النبوى الكريم ، ويوم أن يفض الإنسان إشكالاته مع المجتمع أو يفض المجتمع ومؤسساته الحاكمة إشكالاته مع الإنسان . يوم أن يفض الإنسان إشكالاته مع العلوم والمعارف . ثم قبل كل هذا وبعده يفض إشكالاته مع النفس . . . مع النفس .

يوم أن يفض إشكالاته مع النفس من وحى الدين ؛ يوم أن تنصت النفس فى هدوء وسكينة إلى كلمات النبى الكريم . « يا غلام إنى أعلمك كلمات ؛ احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت

فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

يوم أن تنصت النفس فى تدبر وتأمل إلى حديث الكون الهامس

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧)

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨)

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)

وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾ (الغاشية - الآيات ١٧-٩٢٠) .

يوم أن تنصت النفس فى خشوع وخشية إلى حركة التاريخ وحديث الغابرين ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾ (الغاشية - الآيات ١٧-٩٢٠) .

يوم أن يفض الإنسان إشكالاته مع النفس فيقومها ويهذبها من وحى التوجيه النبوى السديد ؛

« نعمتان مغبون فيها كثير من الناس الصحة والفراغ »

« ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب »

« دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة »

الصدق طمأنينة والكذب ريبة .

يوم أن يفض الجنوب إشكالاته مع الإنسان ومع المجتمع ومع الكون ومع العلوم والمعارف ومع التاريخ ، وقبل كل هذا مع النفس يطمئنها ويعمق السكينة

فيها ، يوم أن يثق الجنوب فى مكنونات نفسه ، لابد حتمًا أن ينكشف ما بداخله من درر وكنوز .

وإذا كان الله قد امتحن الجنوب بالسخونة . فإن الإسلام هو منحة الله للجنوب (بل للأرض كلها) ووقتئذ ستتضاءل البلورة الذهبية فى الشمال أمام البلورة الماسية فى الجنوب .

إن الجنوب أمامه مشروعان للتحضر ، فلينظر بأيهما يأخذ ؛

مشروع الشمال ؛ حيث يأخذ بأسباب العلم والمعرفة .

وأسباب الحكم والقضاء .

ولوائح القانون الوضعى ومواده ،

مبتور كل هذا عن وحى السماء ومنفطر عن أشجان النفس البشرية وأشواقها .

وإما ؛ وإما أن يأخذ بالمشروع الإسلامى النهضوى حيث كل ما سبق ، حيث أسباب العلم والمعرفة ، نعم وحتمًا .

وحيث القوانين واللوائح ؛ نعم وحتمًا

وحيث الحكم والقضاء ؛ نعم وحتمًا

منطلق كل هذا من قاعدة السماء وموصول كل هذا بآفاق النفس البشرية وفضائها الواسع ومخاطبًا أول ما يخاطب الإنسان .

يخاطب فى الإنسان أشواقه وأشجانه .

يخاطب فى الإنسان الضمير والواقع ، يخاطب فى الإنسان الروح والجسد ويخاطب فى الإنسان لوعاته ومراراته .

ونحن نرى أن المشروع الأول لا يناسبنا . لا يناسب الجنوب لأن طبيعة الجنوب تختلف عن طبيعة الشمال . الجنوب وما يحمل من عوامل جغرافية تعمل فيه كموروثات هدم لا يناسبها مشروع الشمال .

وإنما يناسبها مشروع آخر ، مشروع يبدأ أول ما يبدأ مع النفس ، يعالج آثار موروثات الهدم فيها ثم ينطلق معها ليصلحها مع الإنسان ، ومع المجتمع مصححًا مفاهيمها ومقومًا علاقاتها .

المشروع الإسلامى النهضوى يناسب الجنوب الساخن فى انطلاقته لأنه أولاً يبدأ مع النفس وهو الأقدر على معالجة أمراضها وتخطى همومها ، وهو الأقدر على تهدئة لوعاتها وتنشيط روعاتها .

ولأنه ثانيًا يقدم له أعظم مما يقدمه مشروع الشمال . فإذا كان مشروع الشمال يقدم بلورة بسيطة زهيدة مهما ظهر فيها من زخرف ورونق ، فإن المشروع الإسلامى يفجر فينا طاقات الأعماق ويكشف عن بلورات ماسية نفيسة .

والذين يقولون بعكس هذا نحسبهم يشطحون بعيدًا عن الحقيقة ويجهلون كثيرًا عن التاريخ .

إن الإسلام بدأ أول ما بدأ فى مركز الجنوب .

والإسلام خاطب أول من خاطب الإنسان .

بدأ أول ما بدأ فى مركز الجنوب ، ربما لأنه يعرف أن الجنوب المبتلى بسخونة الجو وسخونة الرأس وسخونة الوجدان هو الأولَى بمنحة السماء ؛ وهو الأقدر حين يشفى من علاته على حمل تبعات منحة السماء .

وبدأ أول ما بدأ فى مركز الجنوب ، ربما لأنه يعرف أن الجنوب المبتلى بالسخونة لن يلطف أجواءه إلا نداء السماء ، وأنه إذا تلطفت أجواءه وهدأت سكناته غاص إلى أعماقه فانكشفت الدرر والبلورات الثمينة ، حتى إذا ما عاد ليوزعها على الأرض كافة بحكم تكليف ونداء السماء كان العائد أكبر فى الزمن الأقل ! (وربما يضيف د/ جمال حمدان فى كتابه العالم الإسلامى المعاصر فى معرض حديثه عن حيثيات اختيار السماء للجزيرة العربية لتكون نقطة انطلاق

الإسلام - والله أعلم حيث يضع رسالته : « ولا شك أن طبيعة العرب الرعاة الرحل كعنصر حركى للغاية ، شديد السيولة كرمال الصحراء ، إلى جانب التجانس النسبى الكبير فى البيئة الصحراوية بين الموطن والمهجر مما كفل وحدة الوسط والوسيط ، الرمال والجمال ، لا شك أنها مما تفسر هذا الزحف التاريخى والبطولى ») .

والإسلام تخاطب أول من خاطب الإنسان .

لم يبدأ نداءه بيا أيها المجتمع .

ولا يا أيتها الأمة .

ولا أيها المسلمون .

ولا يا أيها المشروع التنموى أو الحضارى أو النهوضى أو التقدمى .

وإنما بدأ بالإنسان ، الإنسان الملتاع ، المتوتر ، القلق المشتتة أفكاره بفعل سخونة الجو .

يا أيها الإنسان إنى معك أهدئ من روعك ؛ أبث السكينة فى أغوارك ، أنشر الطمأنينة والهدوء فى أعماقك ، وحينما هذا ، حينما تهدأ النفس ويطمئن الوجدان مع هذا النداء الربانى الكريم . . . تغوص النفس إلى الأعماق لتستخرج أعظم ما فى الأعماق ثم لتوزعها بدفع نداء السماء . توزعها بدفع[1] نداء السماء وتكليفه أولاً ثم بدفع الوفرة ثانيًا ، ثم بدافع العدل والحب ثالثًا . توزعها على الأرض كافة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (الكهف - الآية ٤٥) .

واقرأ معى فى أول ما نزل من القرآن ، حديث الوحى مع الإنسان ، وأنه لحديث ذو شجون .

---

(١) الدفع قوة حركية مادية حتمية التحقيق ، والدافع قوة حركية وجدانية احتمالية التحقيق .

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾

(الإنسان - الآية الأولى)

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾

(الانفطار - الآيتان ٦ ، ٧)

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ (الانشقاق - الآية٦) .

وعشرات من الآيات الكريمات تبدأ بالإنسان وتمضى مع الإنسان وتحنو على الإنسان .



رسالة عبر النيل

. . . لقد غلب الظن عندى كما رصدت هذا من خلال عملى وكثرة ترحالى أن الاستخفاف باقتراف الفاحشة ينتشر فى التجمعات المتدنى فيها الوضع الاقتصادى والاجتماعى والثقافى عن غيرها من التجمعات .

فلا شك أن الجنس يشغل مساحة كبيرة فى متن التجمعات الفقيرة . فغريزة الأكل وسد حاجة البطن قلّ أن تُشبع فى مثل هذه التجمعات فلم يبقَ لها حينئذ إلا غريزة الجنس تشبعها وتتعلق بها .

وإذا كان الزواج قد شرع كعلاقة حميمة بين ذكر وأنثى ليشبع به الطرفان حاجات كثيرة ، منها وليس كلها طلب العفة وحفظ النوع ، فإنه فى التجمعات الفقيرة المتدنى فيها الوضع الاقتصادى والثقافى والاجتماعى يختزل دور الزواج ليقتصر على تحقيق هاتين الرغبتين ؛ ممارسة الجنس وإنجاب الولد .

ألفت الفتيات فى هذه التجمعات أن يرون قريناتهن يسقن فى سنهن الصغيرة إلى بيوت أزواجهن ، فلم تدرك الصغيرة من حياة الزوجية إلاّ رغبة فحلها فى ممارسة الجنس .

كما ألفن فى ليلة دخلتهن أن تقف أمها وخالاتها وعماتها على باب الغرفة ينتظرن صرخة الشرف . كما ألفن أن تدخل معها ومع فحلها إحدى قريبات الفحل تشاركه بإصبعها فى إحداث صرخة الشرف .

أما الغلمان فقد ألفوا منذ نعومة أظافرهم أن يسترقوا السمع على استحياء

على أحاديث أعمامهم وجيرانهم عن علاقاتهم الزوجية ، وبعد قليل سيستمع الصبية دون حياء . . . ثم بعد قليل آخر سينشطون ليشاركوا ربائبهم بالتعليق وربما بالفتيا .

وبعد أيام ستنشط هرمونات الذكورة بجسد الغلام فيخشن صوته ويبزغ شاربه حينئذ ستنشط قريحة أبيه ليبحث له عن زوجة وليخصص له ولزوجه أحد غرف البيت .

ألف الفتى الصغير أن يعيش فى بيت تجتمع فيه الفحول عند الطعام وأن يرى غرف البيت مفتوحة بالنهار ومغلقة جميعها من الداخل ، عدا غرفته - عند المساء .

كما ألف الفتى الصغير أن يرى الطيور فى صحن المنزل ذكوراً وإناثًا فى أوضاع مخلة ! وكثيراً ما تطلب منه أمه أن يذهب بأنثى البط أو الماعز إلى فحل الجيران ليخصبها .

اقتصر دور البيوت فى هذه التجمعات على التخصيب والإنجاب . وبين البيوت والحوارى طرق ضيقة جميعها تؤدى إلى أشهر دكان ، إنه دكان حلاق القرية ؛ استشارى أمراض الذكورة وأخصائى بيع الدهانات . دكانه مفتوح نهاراً ويمتد السهر فيه حتى ثلثى الليل . وبالرغم من أن حلاق القرية لا يحمل الهاتف الجوال (المحمول) إلا أنه يسهل الوصول إليه عند عدم تواجده فى حانوته . أى صغير فى القرية يعرف أنه الآن عند عم فلان « بيطاهر ابنه » أو عند الحج فلان بيعطيه حقنة تشد الأعصاب أو عند أبو علان بيعمل تركيبة يشربها مع الشاى قبل النوم بساعتين .

أما الداية فهى فى داخل كل بيت تنشر الثقافة الجنسية بين الفتيات ، وغالبًا ما تستدعى لأنثى تزوجت منذ شهور ولم يظهر عليها البشائر ، وأحيانًا تستدعى للبنت الخاطئة للتخلص من الجنين . كلاهما الداية وحلاق القرية نجمهما ساطع بين الفتيات والفحول !

ولن تعدم القرية أبدًا رجلاً ذكيًا مثل الشيخ رجب الذى شق طريق النجومية

بين أبناء القرية ليتخذ لنفسه موضعًا لا يقل بحال عن موضع الداية وحلاق القرية . الشيخ رجب صاحب التعويذات ، يفك المربوطين من حديثى الزواج والشيوخ على السواء ، ويعمل التحويطات التى تحفظ الفحل من قيلة السوء ومس الجان .

فى مثل هذا الوسط حدثت قصة ذكية .

كانت ذكية تخرج وهى بنت صغيرة كقريناتها مع نسوة دارها وجيرانها إلى الترعة حيث تشاركهن فى غسل الصحون . كما كانت ذكية تسمع أحاديث النسوة وهن يمطن الكلام ، وبين الحين والآخر تعلو الضحكات . وربما مر حلاق القرية وهو يركب بغلته المشهورة على بعض تجمعات النسوة فسأل إحداهن بدمه الخفيف عن أثر الدهان مع فحلها ليلة أمس !

لم تكن ذكية تفهم وهى صغيرة شيئًا كثيرًا ، إلا أنها لما كبرت قليلاً واستدار صدرها بدأ وجهها يحمر . . . وبعد قليل صارت تفهم كل ما يقال وتفسر سبب الضحكات . وربما تمنت ذكية أن لو سمح لها النسوة بالمشاركة فى الحديث وإبداء التعليقات !

وربما سعدت ذكية بهذا النضوج أول الأمر لكن مما لا شك فيه أنها كانت تحزن طويلاً .

لقد كان شرفها يمتد بحجم جسمها وغطائه ، ثم يمتد حتى مرمى بصرها وحيز سمعها . فكانت تشعر أن شرفها يُمس بقدر مس أحاديث النسوة وتلميحاتهن المفهومة لطبلة أذنها .

شعرت ذكية بانتهاك عرض الكلمة التى هى جزء من عرضها . إلا أن أحاديث النسوة الشبقة سحرت أذنى ذكية ومست شيئًا فى وجدانها فلم تعد الكلمة عندها شيئًا مما تثور له فألفت أحاديثهن واعتادت على ضحكاتهن .

تزوجت ذكية كأى بنت فى القرية ومرت بما مررن عليه قريناتها قبل ليلة الدخلة من اقتحام نسوة دارها وجاراتها لحصن جسدها يلقين عليها من دروس ليلة الدخلة بكلمات مكشوفة . فكانت ذكية تشعر حينئذ أنها تتعرى أمامهن وأنهن كشفنها وفحلها حتى قبل أن يدخل بها .

ثم مرت ذكية بما مررن عليه قريناتها ليلة الدخلة من اقتحام النسوة لدارها ينتظرن فى الخارج لسماع صرخة الشرف وربما دخول إحداهن مع فحلها لتشاركه بالإصبع فى أداء مهمته .

كانت ذكية تشعر أن جسدها ينتهك من هؤلاء النسوة كما كانت قديمًا تشعر أن عرضها ينتهك مع انتهاك النسوة لعرض وعفة الكلمة . ثم مرت ذكية بما تمر عليه أى فتاة حديثة الزواج من سحب لأسرار بيتها ونزع لخصوصياتها . فلابد وحتمًا من أن تسألها قريباتها عما تم ليلة الدخلة .

فى مثل هذه الانتهاكات لعفة الكلمة وعرض الجسد وشرف الخصوصيات تربت ذكية وألفت هذه الأوضاع وغدًا ستخرج مع بقية النسوة إلى الترعة لغسل الصحون ومبادلتهن الضحكات والكلمات المكشوفة !

ولابد وحتمًا أن فحل ذكية مر ، كأى شاب من شباب القرية ، بمثل ما مرت به ذكية من انتهاكات . ولا شك وأن أعظم انتهاك وإنهاك شعر به هو ما تم ليلة الدخلة من قبل قريبات ذكية وقريباته . ولا شك أن لاشعوره بات خائفًا مذعوراً من تلك الأعين المتلصصة إلتى هتكت عرض بيته .

ومما لا شك فيه كذلك أن الخور الذى أصابه بالأمس . سيضاعف من قدره ليلة غد ما حدث له اليوم من ملاحقات شبه صحفية من قبل أقربائه وقرنائه ليقص عليهم ما حدث ليلة أمس .

وبات فحل ذكية بجوارها كما بات معه اللاشعور خائفًا من تلك الانتهاكات والملاحقات حتى خيل للاشعور عنده أنه يبيت مع زوجته فى العراء وسط كشف من الناس .

بعد شهور من الزواج نُصحت ذكية أن تشد محامى ليرفع لها قضيته بالمحكمة طلبًا للطلاق بسبب ما وقع بها من ضرر وصونًا لعفتها وأنوثتها . وقد أحالت المحكمة الدعوى إلى الطب الشرعى لبيان ما إذا كان الزوج عنينًا من عدمه وهل عنته يرجى الشفاء منها من عدمه ، وهل هى سابقة على الزواج أم طارئة .

كما طلب منا أن نقوم بالكشف الطبى الشرعى على الزوجة المدعية لبيان ما إذا كان فض غشاء بكارتها من عدمه .

وكان ملخص رأينا أن غشاء بكارة المذكورة به تمزق قديم غير واصل لجدار قناة المهبل مما يعنى فضه بالإصبع .

كما كان ملخص رأينا بخصوص المدعى عليه أنه لم يتبين لنا من كشفنا الطب الشرعى ما يشير إلى وجود عنة عضوية ، وهذا لا ينفى احتمالية وجود عنة نفسية .

لم تتمكن ذكية من انتزاع حقها فى الطلاق ، إذ إن القانون لم يكن يعترف بالعنة النفسية كمسوغ للطلاق .

هجرها زوجها وسافر إلى بعيد للعمل . . . وقعت ذكية فى شباك الغواية واقترفت الفاحشة . . . قتلها أهلها .

فى صباح أحد الأيام انتقلت إلى جثمان ذكية حيث يرقد فى إحدى القرى غرب النيل .

لا شك أنها لم تختر لحياتها شيئًا ، ولم تختر من أمرها إلا أن تدفن فى هذا المكان النائى عن الناس القريب من النيل . ولا شك أنها تحدثت إلى النيل وهى راقدة مسجاة . ولا شك أنها أسمعته همومها وشكت له عن جهل الناس وظلم ثقافات وضعف قانون .

ولا شك أن زوجها برغم بعده وسفره قد شارك فى قتلها يوم أن لم يعترف لها بحقوقها كأنثى وزوجة ، ويوم أن رفض تسريحها بعد أن طلبت وألحت عليه بالطلاق ، ويوم أن هجرها معلقة فلا هى زوجة ولا هى مطلقة .

ولا شك أن القانون كذلك قد ظلم ذكية يوم أن ضعف عن نصرتها واسترداد حقوقها فلم يمنحها حق الخلع أو الطلاق .

ولا شك عندى كذلك أن الثقافة التى تربت عليها ذكية قد شاركت فى مأساتها ، شاركت فى مأساتها يوم أن هتكت عفة وعرض الكلمة فوضعت

إحدى لبنات الاجتراء على اقتراف الفاحشة ، وشاركت في مأساتها يوم أن اقتحمت بيتها وفضحت أسرارها وانتزعت خصوصياتها فوضعت لبنة أخرى من لبنات الاجتراء على حصن الجسد وعفته .

ولا شك أن لبنات كثيرة تتراكم خلال منظومة ثقافية يهترىء خلالها ثوب الحصانة والعفة . ويضاعف من أثر هذه المنظومة ضعف الموارد الاقتصادية لدى الأسرة فتتضاءل أهمية الحياة على عمومها ويبرز الاستخفاف بقيمة الحياة أولاً والاستخفاف بالعفة والشرف ثانيًا .

فى مثل هذه التجمعات تغلب جرائم معينة مثل جرائم الانتحار لأبسط الأسباب والمشاكل ، وخاصة المشاكل العاطفية وبأبسط الوسائل مثل سكب الكيروسين وإشعال النار فى الجسد .

تغلب جرائم الانتحار كانعكاس للاستهتار والاستخفاف بقيمة الحياة . وتكثر حالات الوقوع فى الفاحشة كانعكاس للاستخفاف بقيمة الشرف والعفة .

ولا شك أن هجرة الرجل إلى الخارج وسفره بعيدًا عن أسرته بحثًا عن العمل وزيادة للموارد قد ضعّف من حصانة الأسرة وفتح بابًا أمام أمثال ذكية للانحراف والوقوع فى الغواية .

ولعل قضية قد أشرفتُ على مباشرتها تبرز أمامى لأذكرها هنا فى هذا الصدد .

فقد ورد على لسان إحدى الفتيات بالتحقيقات أن شابًا كان يسمعها حلو الكلام حتى إذا ما لانت له غرر بها وعاشرها معاشرة الأزواج .

وقد أدلت الفتاة بأقوالها أمامى . وكانت أقوالها على هيئة جُمل متقطعة تنتهى كل جملة بتعليق منها عبارة عن كلمة واحدة . وكان موجز ما أدلت به أمامى ؛

« فلان كان بيقولى كلام حلو وكان بيقولى أنا باحبك . . . « عادى » وبعدين فى مرة أخذنى شقته . . . . « عادى » وقبلنى . . . . « عادى » .

ثم . . . . « عادى » ثم . . . . « عادى »

وانتهت روايتها أنها عاشرها بعد أن أقسم لها أنه سيتزوجها ثم التعليق بكلمة « عادى » .

كان معى زميل طبيب شرعى يستمع معى إلى أقوال الفتاة . ولما شعرت « بالقرف » من قصة الفتاة وروايتها طلبت من زميلى أن يباشر هو هذه القضية فصاح مقهقهًا . . . « عادى » .

* * *

وبعد ، فإنه ليس من الحكمة أن نبرئ ذكية من تبعات وزرها بالكلية فلا شك أنها أخطأت بقدر ضعف إرادتها عن الصمود والمقاومة .

كما أنه ليس من الإنصاف أن نحمل ذكية تبعات إثمها دون النظر إلى أبجديات السياق .

ومما لا شك فيه عندى أن للإنسان جوهرًا قد اختاره ، وأن عناصر أخرى كثيرة قد فرضت عليه وشاركت فى تلوين سلوكياته ، وأن الله قضى أن يحاسبنا على متن قد اخترناه ، وأن المجتمع اقتضى أن يحاسبنا على هامش فرض علينا .

« فأى عدل فى ميزان الله

وأى ظلم فى ميزان البشر » !

على أنه بالرغم من ضيق المسافة فى صفحات هذا الكتاب بين مأساة ذكية ومأساة الفتاة التى تحدثنا عنها تحت عنوان ألطاف الله ، فإن البون بينهما واسع شاسع على صفحات كتاب القيم والأخلاق .

فهناك فى قصة الفتاة قد ساق القدر إشاعة ، ولولاها لظل الناس على ما هم فيه عليه من حزن وأسى ولظل حالهم حال من يشيع فلذة كبده ويودعها ، لكنهم الآن كما رصدتهم وقتئذ يباركون ويهنئون ، ولم تعد القصة قصة حياة وموت وإنما هى قصة شرف وعار ، أو قصة التهليل لصدور براءة من اتهام .

أما هنا فى مأساة ذكية أو فى قصة الفتاة التى بلغ بها الاستهوان مداه وجعل من كلمة « عادى » تعقيبًا لها على انتهاك عفتها وحرمة جسدها ، هنا نرصد خطين يمضيان فى اتجاهين متوازيين ؛ أولهما يمضى مع فتيات يستهن بالعفة بل بالحياة على عمومها ، والثانى يمضى مع أهل يعاقبون الساقطات من بناتهن بأبشع صور العقاب .

وكانت الأمور تقضى أن يمضى الخطان على تضاد فى الاتجاه لا على تواز ، فبشاعة العقاب وصرامته تقضى بتجفيف منابع الفساد وتحجيمها ، فلا نرى حينئذ من تفسير لهذا التناقض إلا عزو سقوط بعض الفتيات فى تلك التجمعات المتدنى فيها الأحوال المعيشية إلى الإستهوان بالحياة بعد أن أشقتهن الحياة وأحجمت عنهن فرص العيش الكريم فلم يعدن يرون فيها من سبل التمتع إلا الاستمتاع بأجسادهن يعتصرن فيها زهرة الحياة ، وبعد قليل سيسحبهن أباؤهن أو أعمامهن لذبحهن وتقديمهن قربانًا إلى الإله . استهوان بالحياة أو هو إقدام على الانتحار أو إقدام إلى « طبلية » الإعدام ، وكأن سائلاً يسألها « نفسك فى إيه أيتها الشقية قبل تنفيذ حكم الإعدام » .

وكأنها تجيب « الموت عندى لا يفرق كثيراً عن الحياة

فلم أرَ فى الحياة إلا البؤس والشقاء

أحب أن يهمس فى أذنى حبيب

أحب أن يعتصر جسدى حبيب »

ثم بعد قليل تسحب الطبلية من تحت أقدامها لتسقط فى بئر سحيق ليس له قرار ولتعلو الرسالة من جديد ؛

« رسالة من الفطرة التى خلقها الله فى الإنسان إلى المجتمع الذى شاء الله له أن يؤثر فينا إيمّا تأثير » .



أشلاء امرأة

✍ . . . عناصر شتى تتشابك لتشارك إرادة الإنسان فى صنع دنياه ومستقبله . إرادة الإنسان ذلك السر الغامض الذى يتحرك فى الإنسان فى مدار ثابت نتحكم فيه فى معظم الأحيان ، ويحيد عن مساره وينفلت من بين أيدينا قليلاً أو كثيراً فى بعض الأحيان ، وهى مسارات وحيودات تمضى بنا بمثل ما تمضى به حركة الجسيمات السيارة فى الأنوية والذرات والجزيئات ووفق إرادة علوية وتوفيقات إلهية ، كما تمضى بنا وفق سنة نبوية قد كشفها لنا وأخبرنا عنها سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على الإيمان » .

عناصر شتى تتشابك وتشارك فينا الإرادة ونحن نخط خطانا فى دروب الحياة:

المستوى الاقتصادى أحد هذه العناصر .

والمستوى التنويرى والاجتماعى عنصر آخر .

والمستوى التعليمى والثقافى عنصر ثالث .

الأسرة والمجتمع والإعلام والعالم من حولنا عناصر أخرى .

والإنسان فى جملته كميات من الغرائز والحاجات ، قد يتساوى - فى كمها الإجمالى - معظمنا وقد يتفاوت فيها بعضنا .

الحاجة إلى الطعام ، الحاجة إلى الجنس ، الحاجة إلى إثبات الذات ، الحاجة إلى تنوير العقل ، الحاجة إلى إشباع الوجدان وتسكين النفس .

بعض التجمعات السكانية تتضاءل فيها حجم بعض هذه الحاجات أو معظمها فتتوجه طاقة الضغط إلى المتبقى المتاح منها وتضخم من حجمها . قد تتضاءل الحاجة إلى إثبات الذات وتنوير العقل وإشباع الوجدان وتغذية الروح بفعل ظروف أسرية واجتماعية . وقد لا يبقى لمصارف طاقات الإنسان إلا إشباع حاجة البطن والجنس ، وقد تضغط ظروف المجتمع على « أشلاء الإنسان » بفعل الظروف الاقتصادية فلا يبقى للإنسان من مصرف لطاقاته إلا الجنس .

فى مثل هذه الظروف تكثر الانحرافات الجنسية .

وفى مثل هذه التجمعات ، وفى أحد المراكز الغاربة ، الغاربة عن الشمس ، الغاربة عن العمران ، الغاربة عن الإنسان ، الغاربة عن الطريق الزراعى ، حدثت مأساة « قمر » .

عاشت قمر فى أحد المراكز الغاربة بالصعيد .

تزوجت وأنجبت .

اعتقل زوجها وغاب عن حياتها .

لم يترك لها زوجها ما تنفق به على أولادها ، ولم يكن لها فى حياتها رصيد تنويرى يحصنها ويثبت أقدامها .

انحرفت قمر ، أخطأت ، حملت .

حملت سفاحًا وسط صخور الصعيد الصلبة وجوه الساخن القاسى . صخور صلبة وجو قاسٍ . . . . أخلف وراءه قانونًا أصلب وقلوبًا أقسى .

الأب والعم وابن العم يجتمعون ويقررون وينفذون .

* * *

فى أحد أيام الصيف انتقلنا وتبينا وجود طرف سفلى آدمى مكون من فخذ وساق وقدم .

ومن طول الفخذ قدرنا طول بقية الجثمان المفقود .

ومن « العرف الحرقفى » لعظمة الفخذ قدرنا عمر الجثمان المفقود .

بعد ثلاثة أيام انتقلنا وفتشنا فى تراب الصحراء مستخدمين فأسًا وغربالاً ، وعثرنا على بقايا عظمية بعضها محترقًا .

فى اليوم الخامس انتقلنا وتبينا وجود جزء مكون من الصدر والبطن وكذا الأطراف العلوية ، ربط الطرف الأيمن فى حبل أخضر زرعى !

وبعد أيام اكتملت الأشلاء واتضحت الصورة .

* * *

ذبح الأهالى ابنتهم ، فصلوا رأسها ، بقروا بطنها ، استخرجوا جنينها .

قطعوها إلى أجزاء ، أحرقوا بعضها وأخفوا بعضها فى أماكن نائية متباعدة ، الجمجمة حرقت مع روث البهائم ثم طحنت وهشمت ثم ذروها فى الهواء مع التراب .

ولا شك أن قمر ومن قبلها ذكية عاشتا فى مأساة وماتتا فى مأساة وأخلفتا وراءهما مذكرات ؛

مذكرات عن الإنسان حينما يضل وينتكس

ومذكرات عن المجتمع حينما يقسو ويسهو

ولا شك أن الشرف مايزال يمثل قيمة عظيمة فى الصعيد وأن تلويثه يمثل جرمًا كبيرًا يواجه بشدة وغلظة وقسوة .

ولا شك أن العقاب مهما عظم واستغلظ لا يعالج مشكلة طالما استبقيت الجذور واشتدت الضغوط .

قضايا المسئولية القانونية

✍ . . . وإذا كان المجرم يثير لغزاً محيراً فى فهم سيكولوچيته وسلوكياته فإن الإنسان المختل عقله يثير لغزاً أكبر .

وقد يدفع اختلال العقل أو الوجدان إلى ارتكاب جريمة وحينئذ قد يكلف الطبيب الشرعى بمناظرة مثل هذه القضايا لبيان مدى مسئولية هذا الشخص عن الجريمة . إذ كثيراً ما نكتشف أنه مجرم ذكى أحبك دور المجنون ، بغرض طرح المسئولية القانونية عنه .

والواقع أن الاختلال العقلى أو الوجدانى يحتاج فى إثباته أو نفيه إلى خبرة خاصة . فكما قلنا هناك المجرم المحترف الذى يدعى الجنون ، وهناك المختل الذى أوقعه مرضه فى ارتكاب الجريمة ، وغالبًا ما ينكر مرضه أو اختلال عقله بل وأحيانًا ينظر إلى نفسه على أنه العاقل الوحيد فى هذا العالم ! حينئذ نصبح أمام احتمالين خطيرين ؛ مجرم دعى أو مريض ينكر اختلال عقله .

ومريض الضلالات أو اضطراب البارانويا غالبًا ما يكون على مستوى ذكاء عال ، وربما كان مثقفًا ، وكثيراً ما يوظف ذكاءه وثقافته فى إنكار ضلالاته أو إخفائها ، وإذا اقترب منها فهو يقترب بحذر شديد ، وما أن يلمح فى عين محاوره شكًا أو ريبة حتى يسارع بالقفز فوق منطقة الخلل !

وعلى هذا فأنا فى مثل هذه القضايا ألعب مع مثل هؤلاء الأشخاص نفس لعبتهم فأقترب من منطقة ضلالاتهم بقدر ما يقتربون ، وأبتعد إذا أرادوا أن يبتعدوا ، وإذا حاموا من بعيد حمت معهم من بعيد .

ومن خلال المحاورة ودراسة التاريخ المرضى والسلوكى نستطيع أن نحدد حقيقة المرض وطبيعته .

وأذكر فى هذا قصة شاب يدعى « س مهدى » قد اتهم فى قضية ما .

والواقع أن حاسة الخبير تستطيع أن تشعر أن ثمة خللاً فى المريض ، لكن وضع اليد على هذا الخلل أمر ليس سهلاً . ومن بداية محاورتى مع هذا الشاب أدركت أنه ليس سويًا ، واستمرت محاورتى معه ساعات حمت خلالها حول منطقة ضلالاته مقتربًا رويداً رويداً منها ، وأدركت أن ضلالاته لها علاقة باسمه ولقبه ، فكثيراً ما ينحت المختلون ضلالاتهم فى أسطورة درامية محبكة من نسيج البيئة حولهم ، وأحيانًا يكون الاسم أو اللقب هو أقرب شىء ينحتون منه ضلالاتهم . وواضح أن لقب « مهدى » يوحى بإيماءات ثيوقراطية . وبدأت معه بتبادل الثقة ، ونقلت له إعجابى بشخصيته وثقافته ، ثم تحاورنا فى موضوعات دينية ومنها دخلنا إلى حوارات عن أشراط الساعة وعلامات يوم القيامة .

وتتوالى الحوارات ويدخل معى منطقة عشقه ! . والواقع أن مريض « ضلالات العظمة » قد يعشق هذه المنطقة ويعتبرها واحة يستجم فيها ، وقد يمنع الأخرين من الاقتراب منها إلا من يثق فيهم أو من يستطيعون بحواراتهم الحذرة أن يدخلوها معه .

حاصرت الشاب ووصلت معه إلى نقطة قريبة من ديار حبيبته . لن يستطيع العودة إذن أو الرجوع قبل أن يطل على حبيبته ويسكن إليها .

حينئذ يخر المريض ويتحول من هذا المحاور البارع الفائق الذكاء إلى الجردل الذى يخر ، وحينئذ يتحول الحوار من ديالوج درامى دامٍ إلى منولوج فكاهى كوميدى ، أو هى المأساة الملهاة التى كثيراً ما رأيتها .

« أنا المهدى المنتظر . . . . أنا منقذ البشرية . . . . » !

على أنه يحسن بنا دائمًا أن نتذكر أن المختل عقليًا لا يتحقق له من خلال جريمته نفع ما . كما أنه لا يدرأ بها عنه ضرراً ما ، اللهم إلا فى دروبه الخاصة المظلمة .

وأذكر أن متهمًا فى قضية ، مشكوك فى سلامة قواه العقلية قد عرض علىّ ، ولما درست ملابسات القضية عرفت أن المتهم تربطه بالقتيل معاملات تجارية وأن شيكات بدون رصيد كان قد وقع عليها . ومن دراسة تاريخ هذا المتهم ودراسة سلوكياته خلصنا إلى الرأى بأنه سليم عقليًا ولا يوجد ما يعفيه من المساءلة القانونية .

والواقع أن ادعاء الخلل قد يختلط مع حالات انفصام الشخصية التى توضع فى التصنيف الأمريكانى الحديث ذى الخمسة محاور ، ضمن مجموعة الاضطرابات التحولية .

كما قد تختلط كذلك مع حالات الهستريا الانشقاقية ويصعب التميز بينهما إلا لذوى الخبرات الخاصة ، وبعد دراسة متأنية لظروف وتاريخ المريض .

وأحيانًا يصاب إنسان بعمى مفاجىء أو فقد لحاسة السمع أو الكلام وربما الحركة ، ومن خلال الفحص نكتشف أنه لا يوجد مرض عضوى يعوق هذه الحواس عن العمل والأداء الجيد ، حينئذ نكون أمام احتمالين ؛ إما هذا الشخص دعى ماهر وإما أنه مصاب بهستريا انشقاقية .

وقد تنسحب هذه الهستريا على الشخصية كلها فنصير أمام شخص ثان مختلف عن الشخص الأول ، وربما كان من هنا أصل التسمية القديمة لهذا الخللَ بانفصام الشخصية أو ازدواج الشخصية .

وبعيداً عن دقائق الأمور الفنية فى تشخيص هذه الحالات فما يجدر الإشارة إليه هنا هو أنه ليس كل خلل عقلى أو وجدانى يعفى صاحبه من المسئولية القانونية . والمتفق عليه أنه كلما كانت الجريمة متسقة مع نمط الخلل أو حلقة من حلقات الضلالة كلما طرحت المسئولية القانونية عن مرتكبها .

فمريض الهوس قد يدفعه هوسه إلى الإسراف والتبذير ، وقد ينتهى به الحال إلى تبديد عفش الزوجية . وتوجه إليه تهمة خيانة الأمانة . حينئذ نستطيع أن نقرر أن الجريمة الموجهة إليه متسقة مع نمط الخلل الوجدانى المصاب به .

على أن نفس المريض الذى أعفيناه من المسئولية القانونية أمام تهمة خيانة الأمانة ، لا نستطيع أن نعفيه من تهمة القتل مثلاً .

ومما سبق ؛ يتضح أنه لإنحاء المسئولية الجنائية عن مريض عقلى شروط وضوابط منها ؛

١ - ألا يرجى - فى منظور الفكر السليم - من الجريمة المرتكبة نفع ما ، وأن لا يتوقع أن يدرأ بها مرتكبها عن نفسه ضرراً . مثال ذلك ؛ الرجل فاحش الثراء الذى يسرق حذاء مثلاً ، أو إنسان (ثرى أو فقير) يسرق فردة حذاء .

فإن الأول قد يكون مصابًا بمرض متعة السرقة . والثانى قد يكون أبلهًا ، فما فائدة فردة الحذاء !

٢ - أن تكون الجريمة المرتكبة متسقة مع نمط الخلل أو حلقة من حلقات الضلالة المرضية ، فمثلاً المريض صاحب الضلالة الاضطهادية وهو من يعتقد اعتقادًا يقينيًا أن رئيسه فى العمل مثلاً يحقد عليه أو أن والده يكرهه ، قد يدفعه هذا إلى قتل من توقع منه حقدًا أو كرهًا .

ومما أذكر فى هذا الصدد قصة سيدة أبلغ أبناؤها العثور على جثمانها محترقًا بأحد غرف المنزل .

قمت بمعاينة موقع الحادث كما قمت بفحص وتشريح الجثمان .

- وجدت الجثمان لسيدة ملقاة على ظهرها فى حالة احتراق كامل .

- الغرفة مهندمة ولا يوجد آثار عنف جنائى أو مقاومة وخالية من أية مظاهر اشتعال ولا يشتم منها رائحة كيروسين أو أى رائحة خاصة .

- استرعى انتباهى وجود مسحات كربونية وتلونات من الهباب الأسود على أدراج سلم المنزل . صعدت إلى الطابق العلوى وفتشت فى الغرف ووجدت بقايا أقمشة محترقة .

بتشريح الجثمان تبين وجود ذرات كربونية بالجزء العلوى من الجهاز التنفسى مما يشير إلى أن عملية الحرق تمت قبل الوفاة ، وما وجود تلك الذرات إلا دليلاً على أنها كانت تتنفس نواتج الاشتعال الكربونية . ولو كانت ميتة لسبب ما ثم تم إحراقها ما تسربت هذه الذرات الكربونية إلى الجهاز التنفسى .

كما وضح لى من دراسة شكل الحروق أنها شاملة لكل الجثمان حتى مواضع الثنايا فى الجسم مثل منطقة الإبطين ومنطقة العجان . والحق أننى حينما أرى مثل هذا المنظر من الاحتراق التام أحاذر بشدة وأميل إلى التفكير فى الاحتمال الجنائى ، إذ إن أى إنسان تشتعل فيه النار بسبب عارض لابد وحتمًا من شدة الألم أن يحاول الجرى والاحتماء بأى شىء يطفىء فيه النيران وحينئذ لا يحترق الجسم كله . أما أن تصل درجة الحروق إلى هذا الحد فإن هذا معناه أن المحترق وقت الاحتراق كان مسلوب الإرادة أو مقيد الحركة . وإذا أضفنا إلى هذا خلو الغرفة التى عثر فيها على الجثمان من أية مظاهر اشتعال إضافة إلى وجود مثل هذه المظاهر فى غرفة أخرى ، والطريق ما بين الغرفتين خاليًا من أية دلالات اشتعالية حينئذ لغلبنا تمامًا الاحتمال الجنائى .

أعربت للمحقق عما أسفرت عنه المعاينة والفحص وأرجأت كتابة تقرير الطب الشرعى لحين إتمام بقية الفحوصات .

بالمصادفة كان أبناء السيدة المتوفاه لدى المحقق يأخذ أقوالهم ، استأذنت فى الاستفسار منهم عن بعض الأمور . سألت أحد الأبناء وهو أصغرهم ثلاثة أسئله .

سنك ؟

٣٨ سنة

عندك أولاد ؟

لسة لم أتزوج

أرينى يديك ؟!

وجدتها ناعمة الملمس

استرعى انتباهى من حديثه جفاف ريقه . إن جفاف الريق قد يحدث بسبب تناول بعض الأدوية مثل عقار الكوجنتين وهو عقار يحتوى على مادة الاتروبين التى تعمل على جفاف الريق .

وهذا العقار يؤخذ غالبًا لتخفيف الأعراض الجانبية للأدوية المضادة للذهان ، وهى الأدوية التى تستخدم فى معالجة بعض الأمراض العقلية .

الآن تجمع لدى ثلاث قرائن تشير إلى اختلال عقل الابن الصغير ؛

إن من عادات أهل الريف الزواج المبكر . فلماذا يتأخر سن زواج أحد الأبناء بالرغم من يسر الحال .

وأن من بديهيات الأمور فى الأسر الريفية أن يعمل الأبناء فى الفلاحة (أو حتى على أقل تقدير يشرفوا على من يعملون فى أرضهم) واليد الناعمة تشير إلى أن صاحبها عاطل لا يعمل .

وجفاف الريق قد يكون كذلك فى هذه الحالة قرينة تجتمع مع بقية القرائن لتشير فى النهاية إلى ترجيح احتمالية تدهور الإرادة . وتدهور الإرادة مصطلح علمى معروف فى علم النفس يكشف عن الاستهتار والامبالاة التى تصحب المريض العقلى المزمن .

سألت أخاه الأكبر هل فلان يأخذ أية أدوية ؟ ، فصرح لى أنه يأخذ أدوية علشان ينام .

إن أهل الريف لا يصـرحـون بسـهولة عن المرض النفسى ، فإن صرح بأن أخيـه الأصـغر يتناول حبوبًا لتسـاعده على النوم فإن ما وراء هـذا التصريح أمر قد يكون كبيراً .

انتهت مناقشتى بهذه الأسئلة البسيطة الغير مباشرة .

ثم تتكشف الأمور وتظهر المفاجأة التى تؤكد ظنونى .

إن الابن مصاب بمرض ذهانى وأنه هو قاتل أمه .

إنه الذهـان الذى غـالبًا ما يكون مصطحبًا بضلالات وهى عقائد خاطئة إلا أنها راسخة فى فكر المريض . قد يكون من بينها أن أمه تكرهه وأنها تنوى قتله أو أنها خائنة - وحينئذ قد يقدم على القتل .

إنه الذهان الذى أحيانًا ما يشوش الإدراك ، وغـالبًا مـا يكون مـصطحبًـا بهلاوس ، وهى رسائل حسية قد يسمعها المريض وقد يكون من بين هذه الرسائل السمعية « إن فلانًا يكرهك - اقتله » .

إنه عالم الأمراض العقلية

عالم له قواعده ونظامه . . . صحيح أنها قواعد مغلوطة وصحيح أنه نظام خاطىء لكنها قواعد والسلام ونظام والسلام .



قضايا المسئولية الطبية

... إذا تحدثنا عن قضايا المسئوليات الطبية وأخطاء الأطباء فهو حديث الساعة أو هو حديث المدينة .

وبعيداً عن الحماس العاطفى وديماجوجية العوام ، وبعيداً عن تحامل المتحاملين أو تحيز المتحيزين ، ولكى نضع هذا الموضوع فى إطاره السليم وحجمه الطبيعى علينا أن نتذكر جيداً الآتى ؛

١ - أن عشرات الآلاف من الجراحات تجرى سنوياً فى جميع أنحاء مصر .

٢ - يرد من بين هذا العدد الضخم إلى مصلحة الطب الشرعى حوالى خمسمائة قضية مسئولية طبية (ادعاء خطأ طبى) سنوياً .

٣ - وإذا تذكرنا ما وضحناه فى مقدمة هذا الكتاب من أن الطبيب الشرعى هو طبيب قاض يعمل فى وزارة العدل ولا يحق له ممارسة مهنة الطب ولا تربطه بأى طبيب أو جراح علاقات عمل أو مصلحة ؛ بل إن القانون قد ألزم الطبيب الشرعى أن يتنحى عن أى قضية تربطه بأحد المتخاصمين صلة أو علاقة . إذا تذكرنا هذا أدركنا أن تقرير الطبيب الشرعى هو تقرير محايد مائة فى المائة .

٤ - ما يتبين لنا من خطأ أو إهمال أو تقصير فى إجراء الجراحة من بين هذا العدد من القضايا الواردة قد لا يتعدى ثلاثين قضية فى السنة (كمتوسط) .

٥ - يتضح مما سبق أنه وبالميزان العادل فإنه حجم أخطاء الأطباء فى مصر قد لا يشكل نسبة تذكر .

والواقع أننا نعذر الناس كما نعذر الإعلام حينما يركز أو ربما يضخم حجم أخطاء الأطباء . إذ ربما لا يعرف الكثيرون أن أية عملية جراحية مهما كانت بسيطة لها مضاعفاتها التى قد تحدث .

إنك إذا قرأت النشرة الداخلية لأى دواء فستلحظ فى كل نشرة بنداً خاصًا يسمى الآثار الجانبية والمضاعفات للدواء . هذه المضاعفات قد تحدث بنسبة واحد فى المائة أو واحد فى الألف وربما نسبة أقل من هذا كثيراً .

إذ إنه ، كما نقول دائمًا ، برغم اشتراكنا جميعًا كبشر فى فسيولوچيا واحدة إلا أن تمايزات تظل بيننا حتى على المستوى الفسيولوچى ، وقد يحدث - لا قدر الله - أن تكون أنت من بين آلاف الأشخاص الذين يتناولون نفس العقار ، قد تكون أنت من بينهم الذى تحدث له أحد هذه الآثار الجانبية وقد تكون خطيرة !

وربما لا يوجد دواء ليس له آثار جانبية معروفة وبالرغم من هذا فلم يقل أحد بحظر تناول الدواء ، بل ولم يمتنع مريض عن تعاطى الدواء اللازم بالرغم من علمه بالآثار الجانبية التى قد تحدث .

الواقع أن العمليات الجراحية يحدث فيها شىء مشابه لما يحدث فى الأدوية .

هناك مضاعفات . وهذه المضاعفات مسجلة فى المراجع العلمية . بل وفى المراجع العلميـة الأجنبيـة الحديثة ، وربما لا تخلو جراحة من إحدى هذه المضاعفات ، وربما يرصد فى المراجع العلمية الأجنبية عشرة مضاعفات أو أكثر لإحدى العمليات الجراحية الكبرى .

إذن هناك اعتراف عالمى بإمكانية حدوث هذه المضاعفات ، ونحن كأطباء شرعيين نتعامل مع مثل هذه القضايا من هذا المنظور .

فإذا حدث فى الجراحة أحد هذه المضاعفات المتعارف عليها فإننا لا نستطيع أن نحمل الجراح مسئولية أو ننسب إليه خطأ أو إهمالاً أو تقصيراً طالما تبين لنا أن الجراح قد بذل قصارى الجهد لدرء حدوث المضاعفات ، ثم بذل قصارى الجهد فى التعامل معها إذا قدر وحدث أحد المضاعفات أثناء الجراحة . وربما لو علم كل مريض تجرى له جراحة ، باحتمالية وقوع المضاعفات ربما لفض هذا كثير من الاشتباكات .

والواقع أننا نحتاج فى معاملاتنا إلى الكثير من التوثيق حفاظًا على حقوق كلا الطرفين . فما يحدث فى الدول المتقدمة ، أنه لا تجرى جراحة إلا بعد أن يحاط المريض علمًا بالمضاعفات التى قد تحدث ويوقع على موافقته لإجراء الجراحة مع علمه بمضاعفاتها ، تمامًا كما يطلع على النشرة الداخلية للدواء قبل أن يتعاطاه .

إن أكثر المضاعفات شيوعًا فى العمليات الجراحية هى ما يحدث بسبب التخدير . والواقع أن مواد التخدير دواء كأى دواء ، إلا أنه ينفرد من بينها بتركيبته الخاصة القادرة على وقف كثير من الأنشطة الفسيولوچية ؛ كاليقظة والإحساس . . . وغيرها ، من هنا فمادة التخدير ليست دواء واحدًا بل هى أكثر من دواء ، كلٌ يقوم بعمل خاص ، فهذا يؤثر على اليقظة وذاك يعدل فى سرعة التنفس . . . من هنا فإمكانية حدوث المضاعفات فى مواد التخدير تكون أكثر من أى دواء آخر .

أضف إلى هذا التفرد فى كل مادة من مواد التخدير دون الأدوية الأخرى بتزايد احتمالية حدوث الحساسية الكامنة . ولكى نلقى ضوءاً على مصطلح الحساسية الكامنة يجب أن نذكر ما كررناه سابقًا بأن تمايزات فسيولوچية بل وخلوية توجد بيننا نحن البشر ، ويبدو أن أدوية التخدير تلتقى فى مساحة كبيرة مع هذه التمايزات ، حينئذ تزداد احتمالية حدوث الحساسية الكامنة .

وهى حساسية لا يمكن التكهن بحدوثها بمعنى أنها ليست كالبنسلين مثلاً الذى ينصح بإجراء اختبار قبل تعاطيه ، بأخذ جرعة صغيرة ومخففة منه تحت الجلد لاستكشاف ما إذا كان الشخص لديه استعداد للإصابة بحساسية البنسلين من عدمه .

مواد التخدير ليست كالبنسلين فى هذه الخاصية ، إذ لو كان لدى شخص حساسية لمواد التخدير فقد يموت ، لا قدر الله ، من جرعة الاختبار نفسها . بل وقد لا تحدث جرعة الاختبار أثراً ينبىء عن وجود حساسية كامنة لدى الشخص ، فى حين أن جرعة التخدير قد تحدث له مضاعفات الحساسية الكامنة .

من هنا نقول إنه لا يوجد مثل هذه القواعد الثابتة التى يمكن من خلالها التكهن بحدوث الحساسية الكامنة لمواد التخدير .

والحساسية هنا ليست أمراً هيناً . فهى فى مواد التخدير لا تعنى الهرش والحكة كما هو شائع فى مفهوم الحساسية ، ولكنها تعنى تغيرات خطيرة فى نبضات القلب وسرعة التنفس قد تؤدى إلى الوفاة .

وإذا كانت الحساسية لمواد التخدير لا يمكن التكهن بها ، فإن التعامل معها عند حدوثها أمر قد يكون ممكناً ويحتاج إلى إمكانيات خاصة وخبرة واحتراف .

والواقع أن كثيراً من المرضى ساذجون ويقبلون أن تجرى لهم عمليات جراحية ، يستخدم فيها التخدير ، فى عيادة أو مركز أو مستوصف ليس به غرفة عمليات مجهزة .

وكثيراً ما نسمع عن وفيات أثناء جراحة بسيطة مثل استئصال اللوزتين ، وهى وإن كانت جراحة بسيطة إلا أن استعمال مواد التخدير فيها يدخلنا فى مضاعفات الحساسية الكامنة التى نتحدث عنها بخوف وحذر .

والخلاصة : أننا ونحن نتحدث عن قضايا المسئولية الطبية علينا أن نتذكر دائمًا النقاط الآتية :

نتذكر مسئولية المريض أمام نفسه فى أن يحسن اختيار المكان ، وألا يقبل إجراء جراحة يستعمل فيها مواد التخدير فى غرفة عمليات غير مجهزة . ونتذكر أن لكل جراحة مضاعفاتها المتعارف عليها ، والتى يمكن أن تحدث حتى مع أكفأ الجراحين وأقدرهم .

ونتذكر واجب الجراح نحو مريضه فى إطلاعه على مضاعفات الجراحة التى قد تحدث ، وأن يقوم المريض بعد الاطلاع بالتوقيع بالعلم .

قال صلَّى الله عليه وسلَّم :

« واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك وأن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » .



براءة المتهم لاختلاف الدليل الفنى مع الدليل القولى

. . . نسمع أحيانًا هذه العبارة تتردد فى قاعات المحاكم – وتلقى وراءها كثيراً من ظلال الشك والتساؤل « حكمت المحكمة ببراءة المتهم لاختلاف الدليل الفنى مع أقوال الشهود » .

إن تقرير الطبيب الشرعى دليل فنى قوى إلى أبعد الحدود . إلا أن أقوال الشهود كذلك ، خاصة إذا كانوا جمعًا ثقاة ، دليل قولى لا يمكن تجاهله .

فماذا يحدث لو تناقض الدليلان أو اختلفا ؟ ولماذا يختلفان أصلاً ؟

غنى عن البيان أنهما قد يختلفان لأسباب كثيرة منها مثلاً تجريح الشهود وعدم صدق روايتهم ومنها كذلك عدم دقة روايتهم أو تلفيقها . ومنها كذلك أن يكون كلاهما صادق وصحيح ولكنهما مع ذلك يختلفان – وهذه هى الزاوية التى أحب أن أتحدث عنها .

كلاهما صحيح ومع ذلك يختلفان – كيف ؟

إن الشهود يتحدثون بمفردات غير علمية – والطبيب الشرعى يتحدث بمفردات أو مصطلحات علمية محددة . وقد يأتى الاختلاف ويتسرب التناقض مع حيث اختلاف اللسان ، تمامًا كما يجلس شخص بسيط مع جمع من أثرياء القوم ويسمعهم يتحدثون عن الأرانب والحيتان والبساريا والخنزيرة . . . إنه لا يعرف عن هذه الألفاظ إلا معناها الحقيقى ، أنه لا يعرف أنهم يستخدمون هذه

المصطلحات للتعبير عن عالم المليونيرات والمليارديرات ، إنه اختلاف اللسان أو بالأحرى انسياح المفردات اللغوية وعدم دقة دلالتها .

من هنا فعلى الطبيب الشرعى بعد أن يثبت رأيه أن يناقش كافة التصاوير الواردة على لسان المتهم والمجنى عليه والشهود وأن يقلّبها على كافة أوجهها ليرى فى النهاية ما يتفق منها مع الرأى الفنى وما يختلف . وإليك بعض الأمثلة لقضايا باشرتها توضح هذا المعنى .

١ - بينت فى أحد قضايا الأعيرة النارية وبعد دراسة شكل وهيئة الإصابة أن مسافة الإطلاق حوالى مترين . وجاء على لسان المتهم نفسه بعد اعترافه بالواقعة أنه أطلق عياراً ناريًا من بندقيته الخرطوش من مسافة تساوى طول الغرفة التى ضرب فيها المجنى عليه وهى تبلغ حوالى ثلاثة أمتار ونصف متر .

قمنا بدراسة أقوال المتهم وسألنا عن مقصده عن المسافة التى حددها ، فورد قوله أنه يقصد أن المسافة بين جسم المجنى عليه وجسم المتهم لحظة الإطلاق ثلاثة أمتار ونصف .

وهنا يتضح الأمر ، ذلك أن مسافة الإطلاق فى عرف الطب الشرعى يقصد به المسافة بين الإصابة فى جسم المجنى عليه وفوهة ماسورة السلاح . ولكى نترجم أقوال المتهم إلى لغة طب شرعى علينا أن نطرح من المسافة التى حددها بُعد فوهة السلاح عنه - أى عن جسم المتهم ، وهى مسافة تساوى حاصل جمع طول ماسورة البندقية (وهى تساوى حوالى ٧٠ سم) والمسافة بين مؤخرة الماسورة وجسم المتهم فتكون مسافة الإطلاق التى يقصدها هى حوالى مترين .

قضية ثانية أيضًا لعيار نارى خرطوش ، حيث قمنا بفحص وتشريح جثمان رجل عثر عليه ملقيًا على بطنه ونصفه السفلى مغطى ببطانية . ووجدنا بأسفل ظهره إصابة نارية ، قمنا بدراسة شكلها ومنها رأينا أن مسافة الإطلاق حوالى ثلاثة أمتار (وبالمناسبة كان بالبطانية أثر إصابى مشابه ومماثل لذلك الموجود بالجثة) .

وقد جاء فى أقوال الشهود أنهم رأوا المتهم يحمل بندقية ويصوبها نحو المجنى عليه من مسافة حوالى نصف متر .

وقد قمنا بدراسة أقوال الشهود وكتبنا عنها تقرير طب شرعى تكميلى وأوضحنا فيه ؛ أن مسافة الإطلاق فى مصطلح الطب الشرعى يقصد بها المسافة بين موضع الإصابة وبين فوهة السلاح . فإذا افترضنا أن المجنى عليه كان ملقيًا على بطنه لحظة الإصابة وأن المتهم اقترب من جسم المجنى عليه بحيث أصبحت المسافة بينه وبين رأس المجنى عليه نصف متر (أو بحيث أصبحت المسافة بينه وبين قدمى المجنى عليه نصف متر) فإن أقوال الشهود حينئذ يتفق مع رأينا الفنى ، لأن ترجمة أقوال الشهود إلى لغة طب شرعية تستلزم حينئذ أن نضيف إلى المسافة التى قدروها بين المتهم وبين رأس المجنى عليه ، المسافة بين رأس المجنى عليه وبين موضع إصابته حتى ينتج لنا المسافة الحقيقية بين المتهم وبين موضع إصابة المجنى عليه . وبمزيد من الدقة فإذا أدخلنا أقوال الشهود فى معادلة رياضية وبلغة طب شرعية لأمكن أن نقول أن مسافة الإطلاق الحقيقية فى هذه الحالة هى طول خط وهمى ممتد من فوهة سلاح المتهم حتى موضع إصابة المجنى عليه وهو يمثل الجذر التربيعى لمجموع مربع ضلعى مثلث أحدهما يمثل المسافة بين رأس المجنى عليه وبين المتهم مضافًا إليها نصف طول المجنى عليه (المسافة بين رأس المجنى عليه وموضع إصابته) والضلع الثانى يمثل تقريبًا نصف طول المتهم (المسافة بين قدميه حتى موضع يده القابضة على السلاح) .

القضية الثالثة التى أذكرها فى هذا الموضوع قضية فتى صغير بأحد مراكز محافظة المنيا - ذهب ليشترى خبز من الفرن - وقف الفتى محاولاً أن يجد موضع قدم بين الزحام - حاول أن يصل للبائع ، عافر وحارب حتى وصل ، لكنه ما إن وصل حتى فوجىء بضربة بالطاولة على إصبعه نتج عنها بتر جزئى بالعقلة الطرفية للإصبع ! !

وردت القضية بهذه الرواية وباشرها زميل لى - وأثبت فى رأيه بعد فحص المصاب ومطالعة مذكرة النيابة والملف الطبى للمذكور ، إن إصابة الفتى قطعية

تحدث من جسم صلب ذو حافة حادة ولا تحدث من مثل الطاولة (حيث إنها جسم راض وليس حادًا) .

ولقد عادت إلينا القضية ثانية ، بمزيد من التفصيل وبمذكرة نيابة تكميلية وقمت أنا بمباشرتها . ولقد استرعى انتباهى أمران . أولهما موضع إصابة الفتى حيث تقع بباطن العقلة وليس بخلفيتها . وثانيهما ما ورد على لسان المجنى عليه من أنه كان متسلقًا على باب الفرن وقت ضربه بالطاولة .

وكان رأيى أنه يحتمل أن يكون بأعلى باب الفرن أجزاء من الصفيح المستوى الحواف ، وعليه ؛ فإذا كان الفتى يضع بطن يده على أحد هذه الأجزاء وضُرب على ظهر إصبعه بالطاولة فإن إصابته ببطن الإصبع حينئذ ستكون قطعية . وللوقوف على حقيقة الأمر كان لزامًا علينا أن نقوم بمعاينة مكان الواقعة .

فى صباح أحد الأيام انتقلت بصحبة السيد وكيل النيابة ورئيس مباحث المركز وكان يرافقنا المجنى عليه .

فى السيارة كنت أرمق الفتى بنظرى وكنت أقرأ فى عينيه حديثًا عجبًا – علامات الزهو والغرور بادية على وجهه ، حاولت أن أقرأ ما يدور بخلده ، لا شك أن نفسه كانت تحدثه أننا نعيش حقًا عصر الأمان ، عصر لا تضيع فيه الحقوق ، كنت أسمع خلجات قلبه تقفز وتقول ، إن جميع السلطات تتحرك من أجل جزء صغير فى عقلة إصبعى ؛ الطب الشرعى والنيابة والبوليس . ماذا كان يحدث لو فقدت العقلة كلها أو حتى إصبعى كله ، أو حتى يدى ، وماذا كان يحدث لو فقدت روحى وحياتى ؟!

علامات التعجب ظاهرة على وجُهه ، بل ربما أهل المركز كلهم يتحدثون ويعجبون . وصلنا إلى المكان وقام الفتى بتصوير الحادث – وقمت بالصعود إلى الجزء الذى أشار إليه الفتى من باب الفرن ، وثبت لى حقًا أنه جزء مستوى الحواف وأنه يعمل كأداة قطعية .

وبعـد ؛ فكانت هذه الأمـثلة لقـضـايا حـقيـقـيـة تكشف الدور الذى يقـوم به الطبيب الشرعى . وهو دور خطير يجب أن يضطلع به بصدق وذكاء وإلا سمعنا هذه العبـارة تتـردد كـثيراً فى قـاعـات المحـاكم « حكمت المحكمـة ببـراءة المتـهم لإختلاف الدليل الفنى مع أقوال الشهود » .

إلا أنه لا يفهم من هذا طبعًا أن الطبيب الشرعى ينساق إلى أى من الأقوال ، سـواء كانت أقوال شـهود أو أقـوال مـجـنى عـليه واعتـرافات متـهم . إنه يـدرس كـمـا بينا ويقلـب الأقـوال على كـافة أوجـهـها ليـرى ما يتفق منهـا مع رأيه الفنى وما يختلف .



حكايات مع النيل

. . . لا شك أن الطبيب الشرعى هو من بين قلة من الناس شاء الله لهم أن يطلعوا على همرمات البشر وأحزانهم .

بل إن جريمة واحدة قد تضخ إلى نافذة الطبيب الشرعى عشرات من الحكايات والمآسى . فهذا هو النيل العظيم قد حمل مع مائه الرقراق جثمانًا طافيًا عبرت به ترعة الإبراهيمية من أقصى جنوب أسيوط إلى أقصى شمالها .

ومع طول هذه الرحلة البعيدة كانت تغيرات رمية تطرأ على الجثمان ؛ انتفخ الوجه واسود ، انتفخت البطن وقذفت بمحتوياتها إلى خارج الجثمان ، انتفخ كيس الصفن وامتلأ بالغازات التعفنية البغيضة . تفلس الجلد وصار كورقة رقيقة سوداء يسهل نزعها . تساقط الشعر وتكاثر الدود .

تغير المنظر وتشوهت المعالم .

ووفد إلينا قبل التشريح فرق من البشر ومجموعات ، كل فرقة فقدت أحد ذويها وجاءوا ليستعرفوا على الجثمان ، فربما يكون هو المفقود .

ومع كل فرقة تسمع حكاية ، وكل حكاية تحمل دراما ؛

فهؤلاء فقيدهم طالب بالجامعة خرج ولم يعد .

وأولئك فقيدهم شيخ ذهب ولم يرجع .

وهذا والدهم ، وذاك ابن عمهم أو ابن خالهم .

وهؤلاء من مركز القوصية وأولئك من مركز ديروط وآخرون من مركز منفلوط .

وهكذا تتجمع عشرات من الروافد والقصص والحكايات ، جميعها حملها هذا الجثمان عبر نهر النيل العظيم .

وكم أعطى النيل لمصر وأجزل العطاء ، وكم حمل مع مائه مآسى عن أولاده وأحفاده .

ولا شك أن مهمة الطبيب الشرعى فى هذا النوع من القضايا تكون صعبة ومركبة . إنها قضية جثمان نزع عنه النيل اسمه وهويته ، تمامًا كما نزع عنه ، من قبل ، جلده وشعره وشوه معالمه .

أول مهام الطبيب الشرعى فى مثل هذا النوع من القضايا هو الاستعراف . وكأنه يرسم لهذه الشخصية المجهولة صورة تقريبية لشكلها قبل أن تتشوه معالم الجثمان .

ومن خلال فحص الملابس على الجثمان إن وجدت نستطيع أن نكشف عن الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها صاحب الجثمان ، ثم قد يكشف الفحص والتشريح بعد هذا عن تحديد سبب الوفاة ، وعما إذا كانت الوفاة جنائية أم طبيعية .

حملت مياه النيل عبر ترعة الإبراهيمية بالصعيد جثمانًا مجهولاً ، وبعد الاستعراف وردت التحريات أن الجثمان لغريق ، ولا غرابة ، فما أكثر من يبتلعهم النيل من البشر ، وما أكثر من قمت بتشريحهم وأسفر الفحص والتشريح على أن سبب الوفاة اسفكسيًا الغرق . وأعتقد أن ميزان الله قائم بين ضحايا المدينة من حوادث المرور ، وضحايا النيل فى الصعيد والقرى من الغرقى . . وربما تساوى العدد على الجانبين لتستوى كفتى الميزان بين هؤلاء وأولئك !

انتقلت لفحص الجثمان ، كان اللون مسودًا ، وكان الجلد محملاً بالفقاقيع . واسوداد الجلد ووجود فقاقيع من المظاهر التى كثيرًا ما نشاهدها فى الجثث المتعفنة، كما نشاهدها كذلك فى الجثث المحترقة . والتمييز فنيًا بين هذه الحالة وتلك أمر قد لا يكون سهلاً على غير المحترف . تبين من خلال الفحص والتشريح أن الاسوداد بالجثمان صورة من صور الاحتراق ، وأن الفقاقيع بالجلد ليست تعفنية وإنما هى فقاقيع ناتجة عن عملية الاحتراق . وكان رأينا أن الحروق المنتشرة بالجثمان حيوية وحديثة حدثت من ملامسة الجسم للهب النار . ولم يشذ عن ما لاحظناه أثناء الفحص والتشريح وعن ما عضد رأينا بإرجاع الوفاة إلى الحروق بالجثمان إلا فحص الملابس التى على الجثمان ، والتى تبين لنا من فحصها أنها خالية من أية مظاهر احتراق ، فيما عدا وجود مسحات كربونية بالناحية الداخلية من الملابس . وهو أمر غريب يحتاج إلى تفسير . وقد تناقشنا حول هذا الموضوع مع السيد الأستاذ رئيس النيابة المختصة ، وكان ملخص رأينا ، أن شكل الحروق ومواضع تواجدها بمعظم أجزاء الجثة وفى مناطق الثنايا بالجثمان يشير إلى أن المجنى عليه وقت إحراقه كان تحت تأثير أحد الكحوليات أو المخدرات وهو الأمر الذى أكده فحص دماء المجنى عليه كيماويًا . وأن عدم وجود مظاهر احتراق بالملابس لا ينفي واقعة الاحتراق . ولا يوجد تفسير لهذا إلا كون المجنى عليه وقت الإحراق عاريًا من الملابس وهو ما أكدته التحريات من أن المجنى عليه والمتهم كان يمارسان الشذوذ الجنسى بعد أن احتسيا كميات كبيرة من الكحول .

عاير المجنى عليه المتهم ، وأخبره بأنه كان يمارس الجنس مع إحدى قريباته (قريبات المتهم) . فما كان من المتهم إلا أن أشعل النار فى حشائش قريبة من الترعة ، ودفع بالمجنى عليه . وقف المتهم أمام الجثمان يشاهده يتلظى وكأنه يشفى غليله وغيظه المكتوم .

حتى إذا ما تأكد من إزهاق روحه أبعده عن مصدر الاشتعال حتى انطفأت النار بالجسد ، ثم ألبسه ملابسه وقذف به فى النيل .

وأحيانًا . . . يكون الاستعراف على الجثمان من الناحية الفنية ، هو مفتاح القضية .

وأذكر فى هذا الصدد قصة رجل مجهول الاسم والهوية عثر على جثمانه فى حالة متعفنة وملقى فى إحدى البرك بالصعيد .

انتقلت إلى موضع الجثمان مبكراً . . . كان الجو صحواً والأطفال فى أول أيام الأسبوع فى طريقهم إلى مدارسهم بزيهم النظيف ، ولا شك أن تغيراً كبيراً يطرأ على نظافة ملابسهم فى نهاية الأسبوع !

الكائنات كلها مع صحو النهار تخرج من مكامنها لالتقاط أرزاقها . مقطورة كبيرة قادمة من بعيد . . . وكلب صغير يعبر الطريق أمام المقطورة ، فلا تسعفه سرعته أمام سرعة المقطورة ، فيقع بين العجلتين الأماميتين ، بعد لحظة يخرج الكلب الصغير أمام عينى مسرعًا من بين عجلتى المقطورة الخلفيتين ! .

ترى هل أراد عزرائيل أن يقبض روحه فى لحظة ثم انصرف عنه فى لحظة ، أم هى مرادات الله التى تمضى فى كونه المكنون وفق سنن لا تخطئ وعبر لا تنقطع .

مضينا فى الطريق قرابة الساعتين . وأشعة الشمس تتكدس فى السيارة ، وبدا الجو حاراً ، عصفور صغير ليس نسراً ولا خفاشًا ، أسمع صوت ارتطامه بزجاج السيارة الأمامى فأراه يسقط أمام أعيننا صريعًا على الأرض .

وبين هذه وتلك ، بين كلب يجرى على الأرض ويقع بين عجلتى مقطورة فلا يموت ، وبين عصفور صغير يحلق فى السماء فيصطدم بزجاج سيارتنا ليسقط على الأرض جثة هامدة بلا حياة أو حراك ، بين هذه وتلك أذكر آيات محكمات من كتاب الله المقروء ؛

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (القمر - الآية ٥٠)

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (الملك - الآية ١٩)

﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (يونس - الآية ٤٩)

تقترب السيارة من موقع الأحداث الملتهبة . قمنا بفحص الجثمان وتشريحه .

الجثمان فى حالة تعفن شديد ، ربما ساعدت مياه البركة الراكدة على سرعة تعفن الجثمان .

رائحة منفرة تنبعث من الجثمان أبعدت رجال الشرطة عن موضع الجثة .

اقتربنا واقتربنا . . . ثم تبينا وجود إصابات رضية بعظام الجمجمة ، والمخ فى حالة عجينة رمية مدممة . كما أظهر فحصنا لعظام الجمجمة وفحص درجة التحام النهايات العظمية للعظام أن الجثة تخص رجلاً فى العقد الرابع من العمر .

وبفحصنا للملابس على الجثة عثرنا على جواز سفر عرفنا من بياناته اسم صاحبه وتاريخ ميلاده ، ومنه عرفنا أنه لرجل فى العقد الخامس من العمر . كما تلاحظ لنا أن الصورة الفوتوغرافية بجواز السفر ممسوحة وغير واضحة .

وعليه ، فكان رأينا أن جواز السفر هذا والذى عثر عليه بملابس المجنى عليه لا يخصه ، حيث إن العمر المثبت بجواز السفر لا يتفق مع ما بينه فحصنا لعمر الجثمان . ولابد أنها محاولة ذكية من المجرم للتمويه والإخفاء .

بعد أيام قليلة أسفرت التحريات كما سمعتها من رجال المباحث أن جواز السفر يخص القاتل وليس القتيل .

كان القاتل تربطه بالمجنى عليه معاملات تجارية ، وكان عليه شيكات للمجنى عليه مستحقة الدفع والسداد . ولابد أنه أراد أن يتخلص من هذه الشيكات . لكن كيف له هذا ؟ إنه لا يعرف أين يخفيها صاحبها . ولابد أن ذهنه تفتق عن قتل صاحب الشيكات . لكن ماذا يستفيد من قتله ، فلابد أن ورثته

سيطالبون المدين بسداد الدين . تفتق ذهن الجانى عن فكرة ماكرة . لما لا يقتل صاحب الشيكات ثم يدس بجواز سفره ، أى جواز سفر القاتل ، فى ملابس القتيل . ولابد أن الناس سيكشفون وجود الجثمان . ولابد أن البحث سيسفر من خلال فحص جواز السفر أنه يخص المدين وليس الدائن . ولابد أن الناس غداً أو بعد غد سيصيحون فى القرية ؛ مات المدين وسقط دينه .

نفذ الرجل جريمته بحبكة وإتقان ، ثم هجر قريته بالصعيد وسافر إلى الوجه البحرى متخفيًا . ولابد أنه كان يتلصص من بعيد وينتظر ما ستسفر عنه نسمة الجنوب .

ولابد أن نسمة الجنوب قد حملت معها ذات صباح مفاجئة غير سارة حينما أتاه رجال المباحث ليواجهوه بجريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد . ولابد أن دَينه لن يسقط فى السماء حتى ولو سقط فى الأرض .



الموت

. . . الموت حق . . . خلق من مخلوقات الله ، سهم يسلطه الله على من يشاء فلا تتقدمه الحياة أو تتأخره .

الموت سابق على الحياة ، قدم ذكره ربُنا على ذكر الحياة ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ (الملك - الآية ٢) . الموت خروج للروح من الجسد ، والقتل خروج للروح مع إزهاق الجسد .

إن الروح لا تسكن إلا جسداً ذا مواصفات خاصة ، فإذا أصيب الجسد أو اختلت مواصفاته هجرته الروح وفارقته .

الجسد يحفظ الروح ، والروح كذلك تحفظ الجسد .

الروح تحفظ الجسد ، تحفظ له فسيولوچيته وتحفظ له دورته الدموية والتنفسية وتحفظ له ملكات كثيرة وخصائص عديدة .

وحينما تفارق الروح الجسد تتوقف الوظائف الحيوية ويتحول الجسد إلى مادة وحسب . حينئذ يسرى على الدم قانون الفيزيقيا وليس قانون البيولوچيا . فتراه يترسب من الأوعية الدموية الكبيرة إلى الأوعية الدموية والشعيرات الصغيرة وينكفئ بفعل الوزن فى المناطق الأكثر انخفاضاً من الجسم أقصد من الجثمان . ليس القلب هو الذى يضخه حينئذ ، وإنما الجاذبية الأرضية هى التى تشده - إنها « الأرض » أو هى نداء الأرض لأجسادنا بعد الوفاة .

إذا كان الجسد مُسَجًّى على ظهره عند الوفاة ترسب الدم فى المناطق الخلفية وإن كان ملقىً على وجهه ترسب الدم فى المناطق الأمامية .

وإن كان معلقًا بحبل فى سقف الحجرة كما فى حالات الشنق ترسبَ الدم فى أقدامنا وسيقاننا .

وإن كان الرأس لأسفل (بفعل مركز الثقل) كما يحدث فى حالات الغرق ترسب الدم فى الأجزاء العلوية من أجسادنا .

إنها أحد أول المظاهر الرمية التى تحدث لنا (ومعذرة لكلمة رمية فهو الوصف العلمى الدقيق وهو اللفظ الذى يلازمنا بعد الوفاة ، وتخيل معى كلمة رمة ودع خيالك يسبح فى أفاقها وفى مصير الإنسان المحتوم) .

إنه الرسوب الرمّى أى رسوب الدم فى المواضع الأكثر انخفاضًا من أجسادنا بعد الوفاة . والرسوب الدموى هذا هو أحد المظاهر الرمية التى يلحظها الطبيب الشرعى بكل عناية وحذر ، فمن مواضع الرسوب ومن لونه وكثافته وأماكن توزيعه يستطيع الطبيب الشرعى أن يخرج بمؤشرات هامة عن وقت الوفاة ، وسبب الوفاة ، وكذلك عن ما إذا كان قد تم نقل الجثمان من مكان إلى آخر كما يحدث أحيانًا عند محاولة إخفاء الجثة أو إبعاد الأنظار عن مرتكب الجريمة .

ترسب الدم هو أحد أول مظاهر الرمية .

وفقد الجسم ثبات درجة حرارته هو كذلك أحد أول مظاهر الرمية .

ماتت فسيولوچيا الإنسان ، حينئذ تتغير درجة حرارة الجثمان تبعًا لدرجة حرارة الغرفة . تصبح درجة حرارته كطفاية السجائر التى بجانبه أو كالسرير المسجّى عليه .

ومن بين المظاهر الرمية التى تصحب الوفاة ، حدوث رخاوة تامة بالعضلات . ثم بعد حوالى ساعتين من الوفاة يبدأ الجسم في التخشيب أو بالمصطلح العلمى التيبس الرمى ، ويمتد التيبس الرمى من أعلى إلى أسفل فيبدأ بعضلات الوجه ثم عضلات العنق ثم الأطراف العلوية ثم الأطراف السفلية ، حتى إذا ما انتصف اليوم بعد الوفاة كان الجسد كله متيبسًا .

بعد حوالى اثنى عشر ساعة من الوفاة يصير الجسد كله كأنه لوح خشبى ، ثم تبدأ مرحلة رمية أخرى هى مرحلة رخاوة ما بعد التيبس (تميزاً لها عن مرحلة رخاوة ما قبل التيبس) وهى كذلك تبدأ من أعلى إلى أسفل وتستمر بالتدريج حتى إذا ما مضى يوم على وفاتنا كان الجسد كله كعجينة رخوة غير متماسكة . مضى الآن يوم على الوفاة ، فى النصف الأول كنا كخشب مسندة ، وفى نصفه الثانى كنا كعجينة لينة .

فى اليوم الثانى تبدأ مرحلة التعفن فى الظهور - هى تبدأ مع الوفاة مباشرة ، لكن معالمها لا تظهر للعين إلا فى اليوم الثانى .

البطن يخضر لونها وتنتفخ ، الوجه ينتفخ ويسود ، الذباب وديدانه يبدأ فى الظهور ، يأكل من أجسادنا ، الجلد يتفلس والأنسجة تتآكل ، والرائحة كريهة تخفيها الأرض بين ثراها ، والمنظر بشع تخفيه الأرض تحت ترابها .

﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ (الكهف - الآية ١٨)

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ (بلغت الروح أسفل الرقبة مقابل الترقوة) ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ (هل من منقذ) ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ ، ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ (ربما كناية عن حالة التخشب الرمى التى تحدث بعد الوفاة) ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ (القيامة - الآيات ٢٦ - ٣٠)

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ (القيامة - الآيات ٣٦ - ٤٠)

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (صدق الله العظيم) (يس - الآيتان ٧٨ ، ٧٩)

■ ● ■ ● ■

المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحة
مقـدمة	٧
الطبيب الشرعى	٩
تقرير الطبيب الشرعى	٢٥
الستار الحكيم	٣١
دبوس فى النافوخ	٣٧
القيم	٤١
سر فى الإنسان غامض	٤٥
شهود تحت الثرى	٤٩
قميص ابن يعقوب	٥٣
الانتحار	٥٩
جناية وليست انتحاراً	٦٥
من الطاف الله	٦٩
جثمان ملقى فى الجنة	٧٥
امرأة وثلاثة رجال	٧٩
الراقصة	٨٣
ديناميكية عادة الثأر وعلاقته بعارض الإرهاب	٨٥
چين فى الجنوب	٩٧
رسالة عبر النيل	١١١
اشلاء امرأة	١١٩
قضايا المسئولية القانونية	١٢٣
قضايا المسئولية الطبية	١٣١
براءة المتهم لاختلاف الدليل الفنى مع الدليل القولى	١٣٧
حكايات مع النيل	١٤٣
الموت	١٤٩